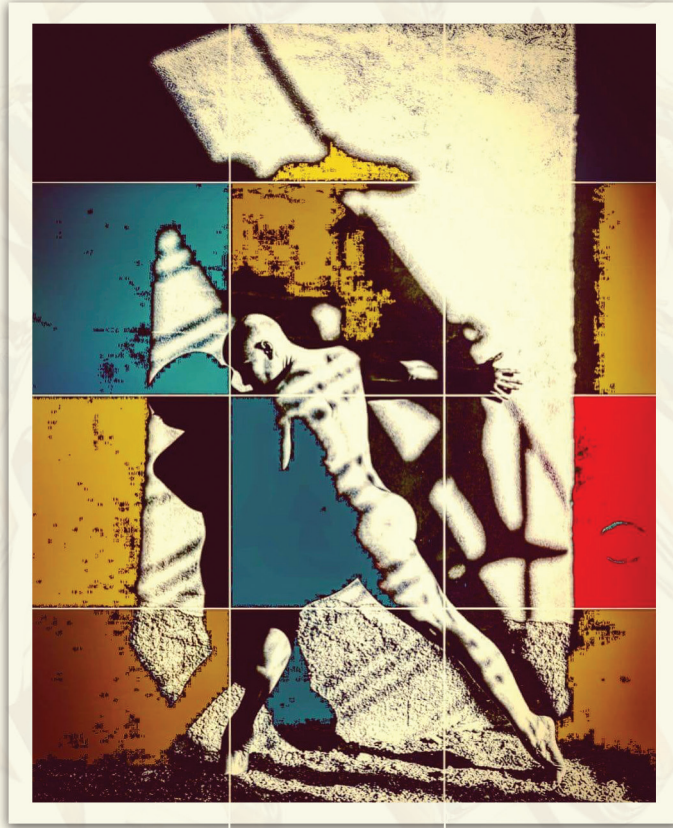


رواية

تموز سعدوني



موزاييك

دار الحكمة
لنڊن

رواية

تموز سعدوني

موزاييك

دار الحكمة

لندن

- موزاييك
 - تأليف: تموز سعدوني
 - الطبعة: الأولى ٢٠١٨
 - الناشر: دار الحكمة - لندن
 - لوحة الغلاف: فسيفساء الروح
- للفنان العراقي المبدع: أحمد علاوي
-  @artistahmedallawi

ISBN: 978 1 78481 142 6

© حقوق الطبع محفوظة

تحذير صحي :

قراءة هذا الكتاب قد تؤدي إلى الاكتئاب النفسي والشعور
بالذنب واتهام الذات

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037

E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk

«Instead of committing suicide people go to work»

Thomas Bernhard (The Correction)

المقدمة

الدكتور فاضل السعدوني

ينتمي تموز سعدوني الى الجيل الثاني من المهاجرين العرب الذين استوطنوا نيوزلندا «هذه الجزيرة النائية الرطبة التي جلبني أهلي القساة لها» كما كتب في أول رسالة له لصديقه الحميم . اختفى الصديق ، واتخذت الجزيرة شكل الوطن . يبني الكاتب ، كيانا روائيا مبنيا على تجربته في العيش في الوطن البديل ، ناظرا لمخلوقاته بمستويين مختلفين من الوعي : الوعي الذي جلبه مع امتعته والذي ما يزال يسكن تلافيف مخه ، والوعي الجديد الذي اكتسبه خلال سنوات التأقلم الصعبة . ومثل تلك العبارات المثبتة على علب السجائر ، يحذر (تموز) قارئ كتابه بأنه مضر بالصحة ويؤدي الى الإصابة بالاكتئاب .

الهجرة باعتبارها مادة روائية

شكلت ثيمة «الهجرة» موضوعا دسما للكتاب العرب منذ عقود. ولقد قام الأستاذان حسن نجمي وعبد الكريم الجويطي بتحرير «أنطولوجيا الهجرة في الرواية العربية» استعرضا فيها التأثيرات المختلفة للهجرة كما انعكست في الرواية العربية بما في ذلك الكتاب الذين هاجروا داخل أقطار الوطن العربي .

يمثل جبران خليل جبران الجيل الأول من المهاجرين العرب الذين امتهنوا الكتابة ، لكن جبران لم يعرف عنه ، على حد علمنا ، أنه تطرق في كتاباته المنشورة على الأقل لهذا الموضوع ، رغم أن القارئ يشعر بالجدور المشرقية لما كتب في غربته . النوع الثاني من الكتابات هي تلك التي كتبها طلاب مبتعثون أو أدباء قدر لهم أن يعيشوا في المهجر فترة من الزمن قد تقصر أو تطول . ومن أوائل هؤلاء الدكتور طه حسين في روايته (أديب) ويحيى حقي في (قنديل أم هاشم) والدكتور سهيل إدريس في (الحي اللاتيني) وتوفيق الحكيم في (عصفور من الشرق) ، وأخيرا الكاتب السوداني المعروف المرحوم الطيب صالح في روايته «موسم الهجرة الى الشمال» . تتميز معظم هذه الأعمال الروائية بما يلي :

- 1 . إن كتابها قد ذهبوا الى المهجر وكانت قدراتهم ومهاراتهم الكتابية والأدبية قد نشأت وتطورت في مواطنهم الأصلية ،

2 . إن معظمهم ذهبوا للتحصيل العلمي أو لأغراض العمل ،
3 . تركز معظم هذه الأعمال على «الصدمة» الحضارية التي
يواجهها الراوي عندما يتعرف على الحضارة الأوربية
ومدى تفوق الغرب على أوطانهم الأصلية ، لكنهم أيضا ،
وكنوع من الشماتة ربما ، تحدثوا عما أسموه بالتفسخ
الأخلاقي في المجتمعات الأوربية ، وكتعويض لهذا
الشعور بالنقص ثمة تركيز على موضوع فحولة الرجل
الشرقي الذي تُعجب به النساء الغربيات ، وهو ما أسماه
الكاتب العراقي المهاجر حسن بلاسم بالهجرة الجنسية!
غير أن كل هذا تغير مع احداث أيلول 2001 ونشوء حركات
الإسلام السياسي المسلحة ، إذ اتخذت العلاقة بين المهاجر
والمستضيف شكلا آخر ، إذ بدأ الأخير ينظر بعين الشك الى
القادم الجديد حين يراه في الطريق فما بالك بالشخص الذي
يكتشف أن هذا المهاجر قد أصبح جاره . هذا التغير المفصلي في
العلاقة هي الموضوعة الرئيسية في رواية تموز سعدوني الجديدة
التي نحاول أن نلقي بعض الضوء عليها في هذه المقدمة . الميزة
الأخرى في كتابات تموز هو انه قد نشأ وتعلم مهاراته الأدبية
في المهجر لذلك فان المهجر هو بمثابة الوطن على عكس من
سبقة ، وللمرة الأولى لدينا صوت قادم من الضفة الأخرى .

البناء الروائي

يؤسس الكاتب عالما تخاله حقيقيا ، مُستعملا أدواته بمهارة عالية ، فالشخصيات مشكلة بطريقة احترافية واضحة حتى تكاد أن تلامس قسّمات وجوهها ، كما يغوص في دواخلها بحثا عن كوابيسها وأحلامها ، كاشفا بمرارة أحيانا عن سقطاتها وخيبات الأمل الكبيرة التي تسم الحياة في المهاجر ، ثم يبدأ بتهديم هذا العالم حجرا حجرا أمام ناظريك دون أن تكون قادرا على تحريك بنانك لتحتج أو تعترض . يستعمل بمهارة تقنية العودة الى الماضي ، ويعود بالقارئ الى سنوات الخوف والرعب في الوطن الأم ، والانكسارات والهزائم السياسية والفكرية ، يلامس الجروح العميقة وبسخرية جارحة أحيانا ، وفي ذروة الرواية يقود القارئ في رحلة الى الجحيم الذي يصفه بتفاصيل مبهرة يقشعر لها البدن ، وتدرك عندها لماذا حذرک الكاتب من مغامرة القراءة ، وأشهد أنني قد توقفت عن القراءة أحيانا كي التقط أنفاسي لأعود مرة أخرى كي أتابع الرحلة مع الكاتب .

تحكي رواية (موزايك) قصة مهاجر بنى له حياة تخيّل أنها حقيقية في مكان تخيّل أنه ينتمي إليه لكن ما يلبث أن تتهاوى حياته أمامه مثل قطع السيفساء واحدة بعد أخرى ، ليكتشف أن مفاصل حياته كله ما تزال مرتبطة بنخيوط تشده على الدوام الى الماضي والى الأرض التي غادرها . تطرح الرواية مرة بعد

أخرى سؤالاً مكرراً مفادهما هو الوطن وما هي الغربة ، ينقل بطل الرواية (أديب) بصره بين السكرتيرة التي تصنع له قهوته كل صباح بالطريقة التي يتذوقها ، ومربي المشمش الذي تصنعه له زوجته ويأكله أثناء قيادته لسيارته وهو في طريقه الى عمله ، وبين أبيه الذي يمثل تاريخاً ممتداً لوطن قديم غارق بالمآسي والملاحم والفتن الهاجع في غرفته ، وابنته التي تمثل الخيط الذي يربط بينه وبين أبيه . كل صباح يصغي أديب للحديث المكرر عن المهاجرين الذي أصبح هم وسائل الاعلام في البلد الذي استوطنه ، ويسأل نفسه أين موقعه من كل هذا؟ هل هو مهاجر أيضاً أم أن تلك الصبغة قد بهتت ، وأن التهمة قد أسقطت بحكم القدم ، وأنه أصبح محامياً ناجحاً في مكتب يتولى مشاكل الهجرة والمهاجرين . وحين يسمع (أديب) بالمشاكل التي يواجهها اللاجئون «بدأت مشاعر أديب تبدو على وجهه ، فهو لا ينسى حين جاء الى هذه البلد كلاجئ قبل عشرين عاماً» .

خلال صفحات الرواية نتابع السيرة اليومية للمحامي (أديب جواد الجنوبي) ، في حاضره الذي تمتلئ ساعات نهاره مثل أي محام محترف يعيش في المهجر وخيوط الماضي المتداخلة التي تجره في كل لحظة . يستعمل المؤلف هذه الدينامية ويطورها خلال النص ويدفع بشخص جديد للظهور على المسرح بين

الفينة والأخرى . فحين تسقيه سكرتيره قهوته المفضلة يقول لنفسه «رائعة يا إيزابيل أصبحت امرأة شرقية بحق!»، وحتى القلم الذي يكتبه كان هدية من أبيه عندما تخرج من كلية الحقوق في موطنه الأصلي . كان يشعر بالوجود الطاغى لوطنه في كل مكان : «يتذكر بلده دائما حين يشم هذه الرائحة في كل مكان من أرض الله» .

يتهاوى عالم (أديب) بوفاة الوالد ، الشيوعي السابق التائب الذي يؤدي الفرائض الدينية الآن ويحتفظ بمسبحة على الدوام كأنها قطعة من الوطن الذي غادره . يكتشف (أديب) فانتازيا الفكر الذي كان يؤمن به والده ، يقول المؤلف : «لقد تحركت أرض أديب عن محورها وتغير الى الأبد» . وحين تتهاوى صورة الوالد القوي صاحب المبادئ الصلبة ، يكتشف (أديب) انه يفتقد أبيه (الأخر) الذي طبع برسمه لحظات طفولته ، لكنه مع ذلك يقوده الى العالم السفلي على نحو يذكرنا بالكوميديا الإلهية لدانتى ليدرك الأب ، بعد فوات الأوان ، أن ما يسمى بالآخرة ، لا يختلف كثيرا في الحقيقة عن الدنيا ، وأن أشرار الدنيا هم المتحكمون هناك أيضا .

تناقش الرواية أيضا بعضا من مشاكل الحياة اليومية في المهجر مثل العمليات الإرهابية وتأثيرها على حياة المهاجرين الذين يكونون في الغالب الحلقة الضعيفة المستهدفة ،

والطريقة التي يزيّف بها الاعلام «المتحضر» القصص دون مبالاة لمشاعر هؤلاء الناس الذين لا ذنب لهم في ما يحدث من حولهم . المصاعب التي يواجهها المهاجر في التأقلم مع الواقع الجديد سواء في السلوك أو المأكل والمشرب . تسمع ابنته طوال الوقت التعليقات الجارحة حول الحجاب الذي ترتديه . تسمع إحدى زميلاتنا تقول : «إنهم يعيشون في بلادنا ، عليهم ان يلبسوا ويتصرفوا مثلنا . عندما أذهب الى أفغانستان أو باكستان سوف ألبس مثلهم» . وتضيف : «كلهم من نفس الطينة كلهم يشبهون بن لادن» . وتصفعه عنوانين الصحف كل يوم : «وجد مقعداً صغير جوار الباب وبجانبه جريدة اليوم وعليها العنوان «المهاجرون يحتلون بلادنا» وبجانب العنوان صورة كبيرة لمجموعة من المهاجرين العرب يرتدون ملابسهم التقليدية ، حاملين حقائبهم وأطفالهم على أكتافهم ، كل ما يبحثون عنه هو لقمة العيش يأكلونها بسلام . جلس على المقعد وتصفح الجريدة بدون اهتمام لأي موضوع تبحث عيناه عن صور تجذب انتباهه» . وفي النهاية يدرك أديب أنه مهما فعل كي يتأقلم مع الوطن البديل فإنه لن ينجح في تحقيق ذلك : «تفرنج وأصبح بلبلًا يغني لغة مارتن ولكن تبقى بشرته حنطية ، وعيونه عسلية وأنفه سامياً» .

ما يود أن تقوله هذه الرواية أن الوطن ليس هو تلك المساحة

الجغرافية المحددة التي نجدها في الأطالس وتحدها الخرائط بل أننا نحمل الوطن في دمننا وجيناتنا وبالتالي ، فمهما حاولنا تبني وطننا آخر فإننا سوف نكتشف في النهاية وكما قال نزار قباني إنما كنا «نطار دخط دخان» .

البناء اللغوي

مثل بطله المهاجر يقف «تموز سعدوني» في منطقة وسطى بين لغته الإنجليزية واللغة العربية التي تعلمها ، ويمكن للقارئ ان يلاحظ ان لغة الرواية هي لغة خاصة او لنقل لغة في طور التشكل ، لغة تتغذى من جذرين مختلفين يسعيان لتوصيل فكرة معينة . أفضل ان أسمي هذه اللغة لغة «مقشرة» تحتفظ بمكوناتها الداخلية ولكنها تتبرج بزخرف اللغة الإنجليزية لغة الكاتب الأولى .

كمدخل للرواية يستعير المؤلف عبارة من تومس برنارد يقول فيها : يذهب البشر للعمل كي لا يقتلوا أنفسهم . وبالأحرى أن ما يقوله هو أنه يكتب كي لا يقتل نفسه ، فالعمل بالنسبة إليه هو ما يقربه أو يجعله شبيها في الظاهر على الأقل من المواطن الأصلي . كان «أديب» يقنع نفسه أنه محام شأنه شأن بقية زملائه . يقول الكاتب عن بطله : «أراد ان يكسر سلاسل الطبقات المرة ويمون عائلته بحياة أهون وأفضل» .

ولكن ما هي اللغة التي يكتب بها ، انه يكتب بالعربية عن أشياء تحدث في المهجر ، لذلك يستشعر القارئ على الدوام بظلال المعنى الأجنبي للنص . أنظر الى الطريقة التي يصف فيها وجه زميله المحامي الذي يجلس قبالة في الاجتماع : « كان فوكل في نهاية عقده الثالث ، تغيرت ملامح وجهه ، وتركت الحياة المرفهة خطوطا ضاحكة حول عينيه ، وأصبح شعره الأسود كالحا خفيفا حول صدغيه» . تنقلك هذه الصورة مباشرة الى خارج المؤلف في النصوص العربية التقليدية فاللغة هنا أقرب الى فرشاة سريعة تحدد لك الملامح الرئيسية دون تفصيل ممل مكرر . وفي مكان آخر : «لقد تركت ساعات العمل الطويلة هالات سمر حول العينين . انتفخ جفنا عينيه وتجمعت السوائل فيهما ، وكان لديه شارب أبيض يجلس كتاج فوق فمه الصغير مثل وسادة تحت أنفه» . لم تعد الفخامة اللغوية و«البلاغة» هي الهدف كما هو الحال مع النصوص التقليدية العربية ، بل التركيز هنا على التفاصيل الدقيقة التي تتميز بها اللغة الإنجليزية . يغرق الكاتب في تفاصيل حتى العمليات البسيطة مثل حلاقة الذقن ولكن القارئ يجد أن هذه التفاصيل ليست مملة ، لأن الكاتب يلتقطها من زاوية مختلفة تماما عن المؤلف .

الخاتمة

كتب تموز السعدوني نصا قاسيا بلغة مكثفة شديدة التفاصيل لما يشبه التقرير المركز الذي يُكتب للمدراء أحيانا حيث يتوجب على الكاتب أن يلخص قضية تستغرق مئات الصفحات بصفحة أو صفحتين . نقل لنا بمنتهى الأمانة القصصية واللغوية أيضا حياة مهاجر يحاول أن يتأقلم مع وطنه الجديد ويعيد تشكيل حياته تبعا لنمط الحياة الجديد ، لكنه يكتشف في النهاية أن ما فعله لا يعدو أكثر من محاولة للهرب محكوم عليها بالفشل ، «أحس بوجع في صدره فلقد اذاب صوت والده كل حائط ثلجي وكل قلعة بناها ليحمي نفسه من الاحساس بمشاعره الداخلية ، فتساقطت هياكل البناء واحدة بعد الاخرى كقطع الدومينو فأصبح عاريا ، مجرد قلب خام ينبض» .

رسالة الى وطني

عاش أديب في مدينة تذكره بموطنه في كل انعكاسات الحياة ، إذا أصغى بحذر يمكنه سماع أوراق الاشجار تهمس له بأنه في مكان سوف يُدفع به الى الهاوية . كان أديب في طريقه الى محل عمله . يقود سيارته يومياً على نفس الطريق ، يترك المنزل في السابعة والنصف صباحاً ويتجه شمالاً ، فهو يحب السواعة صباحاً لأنه مواظب على الاستماع الى برنامج المفضل في الراديو . يستيقظ كل يوم في الساعة السادسة صباحاً ويستحم ويعتني بأسنانه وشعره . يحب ان يأخذ معه خبزاً محمّصاً مغمساً بمربي المشمش الذي تحضره شذى كل عام .

كان برنامجه الاذاعي المفضل (صباح الخير مع ميشيل) . يتناول البرنامج السياسة المحلية ثم يتجه الى الاقتصاد وينتهي بالسياسة الخارجية . السير على الطريق السريع بطيء في الصباح فتتحرك السيارات كالنمل واحدة بعد الاخرى . يشرب أديب

الشاي ويغرس أسنانه في الخبز الطازج المطلي بالمربى الاصفر ،
يلقي لمحة سريعة على ساعة السيارة «7: 35» ويمدّ يده اليسرى
ليرفع صوت الراديو . يتحدث ميشيل عن الاخبار المحلية .

«ان اعداد المهاجرين واللاجئين قد زاد عن 50,000
مهاجر ، لقد كنت عند الخباز هذا الصباح واستغربت بأنني
كنتُ الشخص الوحيد ذو البشرة البيضاء» . أيدّه أديب ، لقد كان
في نفس المكان في الاجازة الاسبوعية وذهب ليشتري الحلوى
بعد العشاء مع عائلته عندما سمع اصواتا تغرّد بلغته الام التي
لم يسمعها على مدار السنين . رجع أديب يصغي الى ميشيل .
«يجب على الحكومة الاّ تضع جميع المهاجرين في مكان
واحد . لأنهم سوف يتجمعون ويتكثرون بين أنفسهم ويكونون
مجتمعا مغلقا . لا يتحمسون لتعلم اللغة ولا يتعلمون العادات
والتقاليد . والاسوأ من ذلك ان الحكومة وضعتهم في بيوت
مؤقتة ، وكل باب من هذه البيوت مصبوغ باللون الاحمر .
هل هنالك سبب لوضع علامة مميزة على بيوتهم ، هل قررت
الحكومة أن هؤلاء كانوا مستهدفين ومُلتخبين بسبب حرب
بدأناها نحن عليهم؟»

تحركت السيارات ، ونظر الى المرأة الجانبية ثم الخلفية
ليتأكد ألا أحد يتبعه ، وهي احدى العادات التي تعلمها في
بلده ، ولم يستطع التوقف عن ممارستها . انتقل ميشيل للحديث

عن الاقتصاد ، وتحركت السيارات بسرعة مما ادى الى ان يُركز أديب على قيادة السيارة أكثر من الاستماع الى الراديو .
تكلم المقدم عن انخفاض اسعار برميل البترول وكيف سوف
ينعكس ذلك على الأسعار في محطات البترول واسعار الفواكه
والخضراوات . لم يبق من الطريق سوى خمسة عشر دقيقة قبل
الوصول الى مكان عمله .

عاد ميشيل على الهواء بعد مدة من الاعلانات التجارية ، دخل
وحلّل السياسة الخارجية . مثل كل يوم موضوع الشرق الاوسط
يأخذ حصة الأسد : تفكك الدول وعدم وجود حبة دواء لحل
المشاكل القومية والعرقية هو السبب المباشر لوجود المهاجرين
واللاجئين في بلد ميشيل . بدأت حرارة اعصاب أديب تزداد مع
كلام المقدم . ان الحل الوحيد الذي يقدمه صاحب البرنامج
هو تفكيك العراق ليصبح ثلاث دول . يقول مقدم البرنامج «ان
الحدود بين الدول في الشرق قد رسمت من قبل الإمبراطورية
الملكية بعد سقوط الدولة العثمانية . قُسمت هذه الدول بتلك
الطريقة لتكون هنالك مشاكل أزلية . سواء أكانت هذه المشاكل
على حدود او موارد طبيعية أو مشاكل طائفية» . تنهد ميشيل
واخذ فرصة ليفكر بعد ان اخذ زفيرا طويلا أكمل الحديث :

«دائما تختار دول الاستعمار الاقليات الصغيرة وتكلفها
بقيادة البلد ، وهكذا عندما تقوم المجموعات السكانية الكبيرة

بثورة لتغير الحكومة الراهنة ، تستسهل الاقليات الصغيرة قتل
ابناء الشعب لأنها ثملت من احتساء خمر السلطة المطلقة» .
شرب ميشيل ماءً واخذ نفساً عميقاً .

«يقف المستعمرون على الحياد يحرضون ويحللون كيف
حدث هذا» . بعد هذه المقدمة وضع أديب جبينه على زجاج
السيارة الجانبي ليبرد رأسه ، لقد أصبح الجو بارداً بعض الشيء .
رأى انعكاس السيارات والاشجار في حبيبات المطر المنثورة على
الزجاج ، تأكد من الوقت وهو يعرف أنه أوشك على الوصول الى
مكان عمله . سال لعبه وابتلع ريقه عندما تذكر القهوة الساخنة
التي تهيئها إيزابيل التي أصبحت خبيرة في صنع القهوة العربية
المررة . يُعجب بما ترتديه من ملابس حديثة وروائح العطور التي
تتركها خلفها ، لقد نسى أديب الشعور بالحب ، وأن يكون حبيباً
لشخص آخر ، فالزواج لمدة طويلة أبدل قلبه وفؤاده . تُذكره
إيزابيل بذلك الكهف الذي يدخله العشاق ولا يرجعون منه .

كان أديب رجلاً روتينياً علمه أباه ، عندما كان طفلاً ، ان الحذر
هزم القدر . يحب أن يصل الى مكتب المحاماة قبل نصف ساعة
من الاجتماع اليومي الصباحي ليكتب قائمة المواضيع التي
سوف يطرحها في الاجتماع ، ويقرأ بريده الالكتروني . خرج
عن الطريق السريع ، وتنقل بين الشوارع المحلية التي يعرفها عن
ظهر عن قلب . كان يحب ان يتمشى في هذه الشوارع في وقت

استراحة الغذاء فيعرف أين محلات البقالة ومعارض السيارات .
انعكست اشعة الشمس التي اخترقت الاشجار المتعانقة على
زجاج السيارة ، ورجع يركز مع صوت ميشيل .

«مشكلة تقسيم العراق الى ثلاث دول هي توزيع الموارد
الطبيعية مثل النفط والغاز . على سبيل المثال النفط موجود في
الشمال والجنوب . التجمع الطائفي على النحو التالي الاكراد في
الشمال ، السنة في الوسط والشيعية في الجنوب . الاكراد حصلوا
مؤخرا على كركوك وكان السنة يتمنون ان تصبح هذه المدينة
البنك النفطى لهم» . بدأ الانزعاج على وجهه وقال لنفسه «لا
أدري لماذا يتحدث ميشيل عن السنة والشيعية ، فما أدراه كيف
يتعايش المجتمع العراقي مع نفسه» .

وصل الى مكتب المحاماة وأوقف سيارته في المكان
المعتاد ، لم يعد يهتم بماذا يقولون في المذيع ، فحمل حقيبته
وخرج . قالت له إيزابيل عندما رآته يدخل «صباح الخير ، كان
الشارع مزدحما أليس كذلك؟ لا يهتمك! قهوتك التي تحبها
على مكتبك» رفع حاجب عينه ليشكرها . لقد كان يفكر بشأن
آخر ، دخل الى مكتبه وكان كل شيء كما تركه يوم الجمعة .
وضع فنجان القهوة بجانب الحاسوب ، يتطاير منه البخار كفوّه
بركان . أخذ رشفتين من السائل الاسود المر وقال لنفسه «رائعة
أنت يا إيزابيل ، لقد أصبحت امرأة شرقية بحق» . لمح الساعة

وكانت الثامنة صباحاً .

قرأ الرسائل الالكترونية بسرعة ، وكتب قائمة العمل اليومية على ورقة صغيرة صفراء . نظر الى القلم وأغلق عينيه . تذكر كيف أهدها ابوه هذا القلم عندما تخرج من كلية الحقوق في الثانية والعشرين من العمر . عانقه أبوه وقبل جبينه وقال له : «لقد رفعت رأسي يا أبنائي ، سوف تدافع عن كل ضعيف وبريء . بارك الله فيك يا أديب» .

كان القلم جميلاً بالفعل ، جسمه أسوداً ورأسه ذهبي حاد كالسيف . يهتز الحبر داخله كالبحر في الليلة الظلماء ، ومحفور عليه اسمه الثلاثي : أديب جواد الجنوبي . قرّر ان يفعل شيئاً غريباً عن طبيعته ، انه انسان يحسب حساب كل شيء . عزم ان يكتب رسالة الى وطنه ، رسالة من أعماق مشاعره ولا يعرف لماذا كان كل هذا محصوراً داخل صدره .

اتجه نحو الطابعة الشخصية الموجودة في مكتبه وأخذ مجموعة من الاوراق وجلس على مقعده المصنوع من الجلد الاسود . توقع ان تنهار الكلمات كالشلال ، تتدفق منه بكل شراسة وترتطم بجبروت الارض . وجد نفسه لا يستطيع أن يعبر عن مشاعره عندما جلس امام ورقة بيضاء ناعمة عذراء . ترك القلم ورجع الى الوراء وأسند ظهره على طول الكرسي وحك راسه .

يمرر يده على خاتمه في يده اليسرى ، وينظر عبر الزجاج الى الخارج ، توقف المطر وأصبحت رائحة الهواء جميلة للغاية . يختلط الماء مع تربة الارض فيعطي رائحة نضرة منعشة ، يتذكر بلده دائما حين يشم هذه الرائحة في كل مكان من ارض الله . جلس كالبوبة التي تحمي أطفالها فوق الورقة ، وكتب الرسالة التي كان قد ولد ومات ألف مرة حتى يكتبها الى وطنه . يحارب الانس والجن كي تخرج الكلمات من فمه وقلبه . قامت روحه تدعو وترقص الى الهة المطر . أصغى أداد إله الطقس الى صلواته ونزلت الكلمات كقطرات المطر . رذاذ في البداية وعواصف تجتر روح صاحبها وهي تنهار على الورق .

رشفة بعد رشفة من القهوة الصباحية ، تبلل البلعوم وتسقي الحنجرة الخرساء التي نشفت من جفاف يطل على صاحبها وسط انحباس المطر من عقود وسنين . امتصت الاوراق الكلمات من ضلع أديب . مع كل حرف وكل كلمة تتكسر عظامه وتضعف إرادته . قطع القلم الاوراق كالحربة وهو يغزوها بالحبر ويلوثها بأفكاره . رجع الى الوراء مثل الهر وانتبه بعد مرور ثلاثين دقيقة ولم يشعر بمرور الوقت . رفع قدح القهوة لكنه كان ملتصقا بالورقة تاركا خلفه هلالاً عسليا . هنالك من يدق الباب ، ودخلت إيزابيل وقالت له «أعذرني يا أديب لكنك تأخرت عن الاجتماع الصباحي» .

- «شكرا لك ، سوف اذهب حالا» .

ونفض من مقعده . ترك القدرح على المكتب مع الرسالة
وأخذ معه الورقة الصغيرة . جرى الى غرفة الاجتماعات في
الطابق الثاني بسرعة لكنه لم يعلم انه قد ترك هاتفه الخلوي
في مكتبه .

رنّ الهاتف مرة دون جواب .

ما لم يعلمه أحد ان الغرفة كانت قد عاشت عاصفة رعديّة
تحرك فيها اثاث المكتب في كل مكان . تخيل ملحمة بابلية أو
اغريقية قد حدثت في مكان صغير . لقد تحركت ارض أديب
عن محورها وتغير الى الابد . رن الهاتف مرتين آخرين ، دون
جواب .

* * *

وضع مارتن كستيلو قائمة الاجتماعات اليومية امامه وهو
يعبث بذقنه بيده اليمنى ، فوجد جزءاً من لحيته لم تتم حلاقتها
جيدا . يترك المنزل مبكراً لأنه لا يريد ان يصبح فريسة أخرى
ساكنة في الطريق السريع . رفع رأسه ، ونظر الى شريكة الاداري
جون بيير وقال له : « يبدو ان أديب قد تأخر اليوم ، دعنا نبدأ
الاجتماع » . طرقت الطاولة الخشبية بأطراف أصابعه مصدراً ما
يشبه عزف البيانو . كان يحب الاستماع الى الاوبرا الكلاسيكية
في مكتبه يوميا .

استدار جون الى صديق أديب فوكل وقال له : «هل بإمكانك ان تذهب الى مكتب أديب ، وتسأل إيزابيل عنه؟» هز فوكل راسه مؤكداً ، وقام من مكانه واخذ هاتفه الخلوي معه . شكر مارتن وجون زميلهما فوكل في نفس الوقت ، ونظر مارتن الى ساعته ، وفي اللحظة التي وصل فيها فوكل الى باب غرفة الاجتماعات الزجاجية أطلَّ أديب وهو يلهث من الجري . نظر فوكل وقال : «صباح الخير ، لقد تأخرت اليوم ، مارتن وجون ينتظرك على أحر من الجمر» .

تمنى انه لم يكتب الرسالة التي تسببت بتأخره عن الاجتماع اليومي ، ندم وتحسر وهو يعلم جيداً ان هذا ما يحدث عندما يُكسر الروتين . فتح فوكل الباب ورحب به بيده اليمنى ، ابتسم أديب ابتسامة خفيفة ووضع يده على كتفه . لقد كانا اصدقاء منذ أكثر من عشرة أعوام وعملاً في مكتب المحاماة في نفس العام .

قال أديب : «صباح الخير ، أعذروني لقد تأخرت في الطريق اليوم . ارجو ان لا تكونوا قد انتظرتكم مدةً طويلة» ، أتجه الى مبردة المياه ، وأخذ قدحاً من الماء ، وجلس بجانب فوكل . مد ذراعيه ولمس الزجاج البارد بيديه ، ونظر الى جون ومارتن .

- «نحن نعرف أنك تعيش بعيداً عن المكتب . كيف كانت عطلتك الاسبوعية؟» سأله مارتن بعفوية .

اجابة أديب وهو يتذكر مشاهد سينمائية سريعة من العطله
تنبض في مخيلته «الحمد لله ، كان عيد ميلاد أبنتي» .
ابتسم جون وقال : «كم أصبح عمرها؟ كيف حالها في
المدرسة؟»

- «أصبحت في الخامسة عشرة ، عليك ان تسأل والدتها حتى
تعرف كيف حالها في المدرسة» ، وضحك الجميع في نفس
الوقت .

- «دعنا نباشر الحديث عن شؤون هذا الاسبوع» رد جون
والابتسامه على اتساع وجهه .

هزَّ أديب راسه بتفهيم ، وأخذ رشفة من قرح الماء ونظر الى
فوكل .

قال فوكل : «دعنا نبدأ» .

كان فوكل في نهاية عقدة الثالث ، تغيرت ملامح وجهه ،
تركت الحياة المرفهة خطوطاً ضاحكة حول عينيه . أصبح شعره
الاسود كالحا خفيفا حول صدغيه . تأكلت أسنانه الصفراء من
كثرة القهوة والشاي . تتسع فتحتا انفة المغطى بالشمس مع كل
شهيق . نظر الى أديب باحثا عن نظره ايجابية من زميله .

قاطع مارتن الحديث وقال : «سوف يزداد ضغط العمل علينا
مع زيادة اللاجئيين» .

هزَّ جون رأسه وقال : «نعم ، لقد وصلتنا أكثر من خمس

حالات قانونية في الشهر الماضي» .

- «يجب علينا أن نقلل من بعض الخدمات ، ونركز على مساعدة اللاجئين» . بدأت مشاعر أديب تطفو على وجهه ، فهو لا ينسى حين جاء الى هذا البلد كلاجئ قبل عشرين عاما .
- «ما هي الخدمات التي تفكر أن نقلل منها؟» سأل مارتن .
أجاب أديب بسرعة واثقة ، لقد فكر بهذا الامر خلال العطلة الاسبوعية عندما كان يسقي حديقة بيته «يمكن أن نقلل من أعداد وصياغة العقود أو التسجيل والتوثيق» .

نظر فوكل بانبهار وأعجاب برد أديب ، وجد أن صديقه كان يخبئ شيئاً عنه بعد كل هذه السنين . رجع تركيزه إلى كتابة محظر الاجتماع وطباعته على جهاز الكمبيوتر المحمول .
أستمع جون الى أديب صامتا ومحدقا به . لقد تركت ساعات العمل الكثيرة هالات سمراء حول العينين ، أنتفخ جفنا عينيه ، وتجمعت السوائل فيهما ، وكان لديه شارب أبيض يجلس كتاج فوق فمه الصغير مثل وسادة تحت أنفه .

تذكر جون كيف كان معارضا انتماء أديب الى مكتبه للمحاماة قبل سنوات ، أنه انسان ليس عنصري لكنه رأى بعينه تراجع بلاده الى الورا بعد دخول المهاجرين قبل عقود من الزمن .
يحب المهاجرون أن يتجمعوا في أماكن واحدة ، فتصبح هذه الاماكن مثل خلايا النحل ، يضعون لافئات عربية ويتجاهلون

لغة اللسان التي يتحدث بها جون .

حثة مارتن عندها على ان يغير رأيه حتى لو كان أديب وليد بلد آخر إذ كان لبق الكلام ليس لديه لهجة وأكمل امتحانات المحاماة هنا . كانت المنافسة بين فوكل وأديب على نفس الوظيفة . أفتنع جون بكلام مارتن واستطاع ان يهذب نفسه ، ويتخلى عن مشاعرة الشخصية ، وعزم على تعيين أديب وفوكل في نفس العام . غضّ النظر عن كل الاخطاء التي يقترفها عادة حديثو التخرج والذين يتعلمون المهنة في بداية الطريق العملي . حتى عندما تزوج أديب من فتاة شرقية من وطنه الام ، ذهب جون ومارتن الى حفل الزفاف ، وجلسا على نفس مائدة الطعام . تناولا العشاء الشرقي واحتسبا مشروب العرق . تنام رائحة اليانسون في ذاكرة جون ، وكلما شمها في السوق يتذكر رفيقه الاسمر . مرّ الوقت ، وأصبح لأديب عائلة صغيرة : زوجته تعمل في المستشفى وأبنته ترعرعت وكبرت هنا .

أصبح أديب من أفضل المحامين في المكتب ، وتحول الى اليد اليمنى لجون ومارتن . وفي وجدان جون كان أديب المحامي الوحيد الذي سوف يساعد اللاجئين الذين يحتاجون الى إعانة عاجلة .

قاطع مارتن حبل أفكار جون وسأله : «ماذا تظن يا جون؟»
أستيقظ جون من أحلامه ، وقال : «أعدروني كنت أفكر في

شيء آخر» وغطى على حياؤه .

قال مارتن : «أديب يريد ان يرشح نفسه ليتكلف بقضية اللاجئين بنفسه» . لمح أديب ابتسامة خفيفة على وجه جون . رفع رأسه وقال : «بالتأكيد هذا ما كنت أفكر فيه ، أحسنت يا أديب» . نزع مارتن نظارته الطبية ومسح عدسات النظارة بقطعه من قماش حريري ، منقوش عليها الاحرف الاولى من اسمة بخط ازرق وبدأ بالكلام : «تعال الى مكتبي بعد هذا الاجتماع لتتكلم بالتفصيل عن القضية» . أكمل فوكل طباعة محضر الاجتماع ، وقرر الجميع العودة الى العمل . أخذ الاجتماع وقتا أكثر من المعتاد . خرج جون وفوكل ، وترك مارتن وأديب بمفردهما .

أقترب مارتن ووضع يده اليمنى على كتف أديب وقال : «أحسنت لم تخيب ظني فيك» .

حرك أديب رأسه وقال : «طبعاً لا ، أنت أبي الروحي لقد ساعدتني كثيرا في بداية المشوار» . وقف وأتجه الى براد المياه ليتملا قدحه من جديد . استدار وأسند ظهره على الحائط الزجاجي وقال : «أعذرني ولكن أريد أن أطلب منك شيئاً» .

عدّل مارتن من جلسته ومدد ساقيه الى الامام . لقد أخذ الزمن من عافية ركبتيه ، وحثه الطبيب على ان يقلل من ساعات العمل . كان مارتن في نهاية عقده السادس وأصبح جداً لحفيدة وحيدة . وضع قبعته الخفيفة البيضاء المصنوعة من الالياف

المجدولة على الطاولة امامه . غزا الصلح رأسه ، وأستوطن مكان شعره الاشيب .

عدل نظارته الطبية وقال : «تكلم ، انت عزيز علي . لك مكانتك وتقديرك . بماذا تفكر؟»

- «أريدك ان توصي بي جون كي يجعلني الشريك الثالث معكم . لقد وعدتني العام الماضي ان تتكلم معي» .

هرش ما تبقى من شعره وقال : «قلت لك يا أبني ان عليك ان تنتظر قليلا . جون ليس مستعداً ان يفرط بسيطرته على المكتب» .

تقدم أديب خطوتين وارتسم الانزعاج واضحاً على وجهه وقال : «لم أعد احتمال الانتظار . أنا أخاف ان يجعل فوكل شريكا قبلي» .

وضع مارتن كفه على كتف أديب وقال : «لا تنحف ، سوف اتكلم مع جون قريباً . إذا أحسنت العمل على قضية المهاجرين سوف تكون خطوة أقرب الى الكنز الاداري» .

شرب أديب من الكلام حتى ثمل ، وبردت أعصابه ، لكن دمه يبقى يفور بين شرايينه حتى لو عاش سنين في بلاد الاغتراب . لم يفلح في تغيير طبيعته ، حتى لو جرب الانسان ان ينسى ماضيه ، يبقى تاريخه يلاحقه الى القبر . تفرنج وأصبح بلبلا يغني لغة مارتن ولكن تبقى بشرته حنطية ، وعيونه عسلية وأنفه سامياً .

دخل مارتن الى مكتبه وأغلق الباب خلفه . علّق قبعته على شماعة المعاطف ، وجلس على كرسيه ، ويحث عن سجل قضية المهاجرين التي سوف يتحملها أديب . حاسب نفسه ، وفكر في أعماقه ، وهو يعرف جيدا ان ما فعله كان أمرا غير سليم . لقد ظلم أديب عندما كذب عليه قبل سنة ، ورمى التهمة على جون . لقد أبتدع سرايا يغطي عيني أديب ، كل ما يراه هو من خلال زجاج موشور . أراد مارتن ان يبقي أديب حصانا يحمل عليه الاعمال الشاقة .

كان هذا عكس ما يريده أديب ، فلقد رأى كيف عمل والده يوما بعد يوم بلا كلل أو ملل . ولد فقيرا من الطبقة العاملة وشاخ فقيرا في نفس الطبقة . أراد ان يكسر سلاسل الطبقات المرّة ويمون عائلته بحياة أهون وأفضل . لم يكن يريد ان يكون أنساناً يقضي عمره في الاعمال الروتينية الشاقة . يرى نفسه يدفع صخرة ضخمة الى قمة الجبل من الصباح الى المساء ، ثم يرى الصخرة تتدحرج الى الاسفل مع غروب الشمس . يدرك تماما ان الغد وبعد الغد سوف يكون مثل اليوم . ايام تبتلع اياما الى نهاية المحك .

اتجه أديب الى مكتب مارتن وهو يدرك ان عليه كسر القالب الذي ورثه من اهله ، وأعتبر أن قضية المهاجرين سوف تكون الباب المؤدي الى حرية الروح . دخل أديب وجلس امام مارتن

وباشر الحديث عن القضية .

قال مارتن : «لقد طلبت منا الحكومة أن نساعد في هذه القضية ، انها عائلة بحاجة الى مساعدة ، ولقد وصلوا الى العاصمة خلال العطلة الاسبوعية» .

سأله أديب : «هل هم من أهل الشام؟» متأملا الآ يكونوا من بلاد الرافدين حتى لا يتعلق بالقضية بطريقة شخصية .
- «كلا ، هم من نفس بلادك وترايك» ، ونظر الى وجه رفيقه وترقب ابتسامة على شفقيه .

- «سوف أشرع بالعمل عليها حالا» . كل ما كان يريد ان يخرج من المكتب فورا . وقف بسرعة وتحرك صوب الباب .
قاطع مارتن وقال : «أعرف أنك سوف تحسن العمل . أرجو ألا تخيب ظني فيك» . لمح أديب نظره ابوية من انسان يعتبره اباه الروحي .

- «اترك القضية معي . سوف أذهب لزيارتهم وأستمع الى مشاكلهم» . دق على الباب بنحاتم الزواج مرتين ، وأتجه صوب السلالم .

بحث أديب عن الهاتف الخلوي في جيبه فلم يعثر عليه . قال لنفسه سوف أبحث عنه في مكتبي أولا ثم في السيارة ثانية . كان فوكل ينتظر أديب خارج مكتبه متحدثا مع إيزابيل . ظهر أديب امامهما ، ورفع حاجبيه الى الاعلى ليحييهما .

قال فوكل : «لقد بقيت لفترة طويلة» ، ووضع سبابة يده اليمنى على الساعة التي يرتديها في يسراه .

- «لقد كان الاجتماع طويلا لكنني فقدت هاتفي» ، قالها وهو يأمل في جواب إيجابي منهما .

قالت إيزابيل : «نعم لقد تركته بجانب الكمبيوتر يا عبقري . لقد رن أكثر من مرة» .

قال أديب : «دعني اتفحص هاتفي وأنظر الى المكالمات ، سوف اراك في مكتبك واحديثك عن كل شيء حدث مع مارتن» .

- «وضعت قذح القهوة على مكتبك قبل خمس دقائق» ، ابتسمت إيزابيل ابتسامه ذات معنى .

- «احسنت يا حسناء»!

منظر البخار الذي يتراقص فوق فنجان القهوة أفرح قلبه . كانت الرسالة التي كتبها جائمة حيث تركها تنظر اليه بإغراء ، تقول له امسكني من خصري وأقلب أوراقك ، أقرأني يا حبيبي . فرح عندما رأى هاتفه الخلوي يجلس بجانب الرسالة . أدرك ان هنالك مكالمات فائتة من الضوء الاحمر المشع الواض . أخذ رشفة من القهوة ، وفتح الهاتف بيده اليمنى . نظر الى المكالمات الفائتة وكلها كانت من «بان» .

الحلزون

- «مع السلامة يا جدي!»

- «الله معك يا حبيبتي . لا تنسي أن تتصلي بي لتذكّرني
بأخذ دوائي»

- «نعم بالتأكيد مثل كل يوم ، وداعاً»

خرجت الفتاة من منزلها واثقة النفس ، تحمل حقيبتها
الزرقاء على جانبها ، تمشي بسرعة معتدلة باتجاه محطة الانتظار
لحافلة الركاب . تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً ، وتنظر الى
ساعة يدها لتعرف انها سوف تصل في الوقت الصحيح . علمها
أبوها ان تكون دائماً دقيقة في التعامل مع الوقت ، وكان يقول لها
«الوقت كالسيف ، ان لم تقطعه قطعك» .

تعيش في شارع جانبي داخل منطقة قديمة لم يبق من
ماضيها سوى الرصيف المبلط . تتجمع حبيبات المطر بين
تضاريسه وتكون بركا من الماء المتجمع . تتفادها الفتاة بحرص
وحذر ، وترى انعكاسها في زجاج السيارات الواقفة بجانب

الرصيف . ترتدي ملابس المدرسة الثانوية ، قميصاً زيتوني اللون بياقة خضراء محددة بخط طويل أبيض وتنورة طويلة ليمونية اللون تغطي ساقيها حتى الكاحل .

يلاحقها خيالها خلفها ، يتمشى على اسوار البيوت التي عرقت وتمددت في صباح هذا اليوم . نظرت الى السماء ورأت القمر في مكانه يتجسس على جمالها الشرقي . أخذت جمال وجهها من أبيها وصغر حجمها من أمها . رسم وجهها بألوان زيتية بفرشاة رسام بارع ، يتلألأ لون عينيها العسلي مع قميص المدرسة الزيتوني . تسحر كل أولاد آدم للخضوع اليها برموشها الطويلة ، كتب الشعراء قصائد للتغزل بحاجبيها على أضواء الشموع ونزل الشمع المائع ورسم انفها . فمها كهف صغير يتوسط وسادتين ورديتين . ملأ ريش النعام كل وسادة فأصبحت ناعمة الملمس . يشتهيها ملوك الأرض ، ويقدمون لها كل كنوز الدنيا ، ويجلس هذا الكنز على رقبته الناعمة اللينة . امتلأت بالسعادة عندما تذكرت أنها سوف تقرأ الكتاب الذي أهداها اليها والدها في العطلة الاسبوعية . أرادت ان تجرب ان تقرأه قبل سنتين لكن والدها حذرها قائلاً انها صغيرة السن على هذا الكتاب ، ووضع راحة يديه على رأسها يمشط شعرها وقالت له :

- «متى سوف تعطيني اياه؟» -

- «عندما تبلغين الخامسة عشر من العمر» ، أجابها والحسرة

على وجهه .

عندما نهضت هذا الصباح كان الكتاب موجوداً بجانب رأسها ،
واستنتجت ان أبيها قد وضعه هنالك قبل الذهاب الى العمل .
كان الكتاب من الكتب القليلة الموجودة في بيتها باللغة العربية .
كانت أمها تحب قراءة القصص البوليسية لأجاثا كريستي باللغة
الانجليزية . تغيرت البيوت الى محلات وانتشرت رائحة المخبز
المميزة ، وانقطع حبل افكارها . ورث إبراهيم اليهودي المخبز
أبا عن جد . كان المخبز صغيراً مكوناً من طابقين يأكل الفرن
حصه الاسد من حجمه في الطابق العلوي ، ويعجن العجين
وتحفظ الخميرة في الطابق السفلي . يأتيه الناس من مختلف
أطراف المدينة ليتذوقوا الخبز المشهور المطعم بالقرفة . بناه جد
إبراهيم بعد الحرب العالمية الثانية من الطوب والقرميد ، جدرانه
وردية وسقفه أصفر تتوسطه نجمة داوود مزخرفة على الزجاج
الامامي ، نجمة أخرى منحوتة على الارض المبلطة . كان اليهود
قد استوطنوا هذه المدينة منذ القرن المنصرم ، ولا يوجد سبب
ليخفوا هويتهم او دينهم . يستيقظ إبراهيم قبل الرابعة صباحاً
كل يوم ، ويذهب الى المخبز ، ويبدأ بالتنظيف والترتيب ويعد
العجينة للخبز حتى يكون كل شيء جاهزاً قبل الساعة السادسة
صباحاً . ينهي العمل في الثالثة مساءً ، ويذهب الى المعبد
اليهودي ليصلي ويشعل شمعة لأبيه . عندما يرجع الى منزله
تسأله أمه المسنة إن كان قد صلى وأشعل شمعة اليوم فيجيبها
إبراهيم بتقبيل رأسها .

وقفت الفتاة أمام المخبز ونظرت الى ساعتها ، لديها عشر دقائق قبل وصول حافلة الركاب . دخلت الى المخبز ورنَّ جرس الباب وألتفت إبراهيم وقال :

- «كيف حالك يا بان؟ كيف حال أهلِكَ؟» ، قالها بحنانٍ فهو يعرفها حينما كانت طفلة رضية .

- «الحمد لله ، كل شيء بخير . لقد استنشقت رائحة الخبز من على بعد عشرين متراً» ، ضحكت بان وصغرت عيناها .

- «كيف حال جدك؟ لم أره من مدة طويلة» . مسح بيديه على قطعة قماش وضعت بجانب ماكينة النقود .

- «انه مريض بعض الشيء وينسى ان يأخذ دواءه كل يوم» . وضعت حقيبته على الارض مبتسمة .

- «اوصلي سلامي وقولي له أن إبراهيم ابن عمك مشتاق لك» ، قالها إبراهيم مداعبا إياها : «ماذا تشتهي اليوم من مخبزي؟»

- «أحب أن اشتري خبز القرفة اليوم»

أجابها إبراهيم «كم واحدة؟»

- «واحدة رجاء»

تركت بان المخبز مبتهجة ، امتلكت ميزة فرقتها عن كل من كان في عمرها : لديها وعي اجتماعي لا يمتلكه غير من صارع الحياة لفترة طويلة . إبراهيم يذكرها أن الشخص المجتهد طول

العمر يأكل ثمار تعبها في النهاية . أن أرض البلد الذي ولدت وتعيش فيه خصبة للمهاجرين ، يأكل المهاجر ويشرب من طاقات البلاد ، تفرح الحكومة مع من ينجح في الحياة وتحزن مع من يخفق . إن اجتهدت وعملت بإخلاص سوف تصل الى أحلامك بلا شك . بلادها التي نمت فيها سوف ترعاها حتى تقف على قدميها .

مالم تفكر فيه في هذه اللحظة هو ما كنت تضمه على الدوام ، من أن والديها قد تركا بلادهم بسبب قحط تربتها التي أصبحت يابسة جدهاء ، نشفت أنهارها وامتألت تربتها بدماء الناس الأبرياء . لم تنتبه أنها كانت محصول تعب العمر نسبة لأهلها . أحيانا لا تعرف الوردة كيف وصلت الى نهاية الساق الطويلة . تنسى أنها وقفت على أكتاف الأجيال السابقة . أجيال حاربت الأمطار والرياح لتخلق حياة مرفهة لورودها .

استيقظت من أحلام اليقظة عند وصولها الى منطقة العبور ، نظرت الى يمينها ويسارها ، وانتظرت وقوف السيارات . انتبهت الى بعض الأشخاص الذين ينظرون إليها باستغراب . قررت تجاهلهم لكنها تبقى إنسانة في سن المراهقة ، ثقها بنفسها ماتزال هشة . لذلك كانت تتساءل لماذا ينظرون لي بهذه الطريقة؟ هل ملابس غريبة؟ هل حقيبتى عجيبة؟ ألسن إنسانة مثلهم . ألم أولد هنا مثلهم . أستنشق الهواء وأشرب الماء . هل لي قوقعة وقرون كالحلزون؟

عندما انتهت من عبور الشارع وضعت يديها حول نصف صدرها ، حيث يجلس قلبها ، وتحسست بيدها اليمنى القلادة التي اختبأت تحت الملابس المدرسية . قلادتها مثل بطانية الامان للطفل البريء ، تهدئ وتسكن روحها كلما انزعجت من الدنيا . كانت قلادة ذهبية أهدتها اليها والدتها في عيد ميلادها السادس ، تتوسطها حلية متدلّية مستطيلة الشكل .

قالت والدتها يومها : «هذه سلسلة أعطتها لي أمي ، وأنا بدوري سوف أعطيها لك لتحملك من العين والحسد» .

- «أنا لا أصدق هذه التخاريف يا أمي ، ولكن سوف أرتديها لأنه لك ولأنها تعود الى جدتي» .

لم تخلع بان هذه السلسلة على مدار تسع سنين ، وأصبحت جزءاً من تقاليد ومراسيم حياتها . قبل كل امتحان تضع يديها عليها وتصلي . تغيرت مهنة السلسلة من الزينة الى طريقه فعالة لتهدئ نفسها مثل مص الابهام عند الطفل الرضيع . جربت تجاهل هذه المخلوقات العجيبة ، لقد أصبحت قريبة من محطة الانتظار . تتمشى من امام مقبرة قديمة كل صباح . تنظر الى شواهد القبور ، وتتمتع بجمال الحرفية العالية التي نحتت الصخور وحولتها الى اصنام ملائكة . صليب يرتفع أمام قبر كل ميت . نحت سطر او اثنين تلخص حياة الانسان الفاني . كانت هذه المقبرة عبارة عن صورة بصرية تذكرنا ان الحياة قصيرة ولا بد

من الاستمتاع بكل ملذاتها قبل فوات الاوان .

وقفت بجانب بقية الناس تنتظر حافلة الركاب ، معظم المنتظرين من فئة الطلاب . ميزت بان بعض الطلبة من مدرستها من خلال ملابسهم المدرسية ، وانتبهت ان هنالك بعض الطلبة ينظرون اليها باستغراب ويضحكون سرا بين أنفسهم . شعرت بالخجل ونظرت الى الارض ، اغلقت قدميها وركزت على حذائها . مثل كل انسان مراهق لا تحب ان تكون محط الانظار . كانت خجولة من صغرها فتحب الاختباء وراء ابيها فتفتح ساقيه كالستارة وتنظر من خلالهما .

أحست بقطرة عرق تتزحلق من ابطها واستدارت حول ثديها ونزلت على خصرها ، رفعت رأسها الى الأعلى ، وداعب هواء الخريف خصلة شعرها . أحست برطوبة الهواء حول رقبتها ووضعت يديها في جيوب القميص باحثة عن الدفء ، ارتفعت الشمس وبزغت أشعتها على المدينة ، تأخذ تماثيل المقبرة شهيقا وتمتد أطرافها حتى تكاد ان تسمع همس الموتى .

ارتفعت معنوياتها عندما رأت حافلة الركاب قد توقفت وصعد الطلاب كالنمل واحداً بعد الآخر . أخذت دورها وصعدت ولم تجد اي مكان للجلوس . كان المكان الوحيد في نهاية الحافلة بجانب الفتيات اللواتي كنّ يتضحكن عليها . جلست أمامهن ووضعت سماعات الموسيقى في أذنيها ، وبحثت عن الكتاب

الذي كانت تحلم بقراءته منذ الصباح .

كان الكتاب بني اللون واصبحت أوراقه صفراء ، التوت زوايا الغلاف الى الاعلى وظهرت تجاعيد على كعب الكتاب مثل اوراق الخريف . كتب العنوان بخط أندلسي يقول «فلسفة مظلوم» للكاتب رفعت مظلوم . يتوسط الغلاف صورة للكاتب جالسا على مقعد عريض أحمر اللون ، صدره واسع عريض الكتفين ، يطغي بجسمه الضخم على جانبي المقعد . واضعا ساقا على أخرى ، ويده اليمنى سيجارة بيضاء . حجر أسود يملأ خاتما جالسا كالملك في يده اليسرى التي وضعها على ركبتيه . ملأت لحية بيضاء وجهه وامتدت من الصدغ الى الصدغ . شعره زيتي ناعم كحلي اللون . تجذبك عيناه اللتان تشبهان عيني حيوان جارح . تحس بذكائه يمتد من الغلاف الى القارئ .

أمامه طاولة مستديرة ملأتها اقداح بمختلف الاشكال : طويلة رفيعة ، قصيرة ، عريضة ، مليئة بالخمير والنبيد . كانت الصورة قد التقطت خلال حفلة أو عشاء . شعر صدره الاشيب خارج من قميصه الصيفي الابيض . تختبئ علبة السجائر الحمراء في جيب قميصه الصغير . نظرت بان الى خلفية الكتاب وكانت هنالك نبذة عن حياة رفعت مظلوم . صورة صغيرة وهو خلف مقود سيارة رياضية يتسم الى الكاميرا ، وسترته البنية تطير خلفه كالعباءة . بدا سعيدا وعيناه مختبئتان خلف نظارة

شمسية . يبدو أنه عاش حياة متكاملة المزيج بين الاخلاق الشرقية والحياة الغربية .

قرأت بان النبذة الشخصية ، رغم ان لغتها العربية كانت ركيكة الا انها استطاعت فهم ما قرأت . بدأت النبذة هكذا :

«يعتبر رفعت مظلوم من عباقرة الفلسفة العربية والعراقية . ولد في بغداد عام 1917 من أب عراقي وأم يهودية وحصل على بعثة دراسية حكومية سنة 1935 . ذهب الى جامعة برستول في إنكلترا للدراسة . رجع الى بغداد بسبب الحرب العالمية الثانية . عاد الى نفس المدرسة في عام 1941 . كان من أحسن الطلاب وتخرج بتفوق . حصل على شهادة الدكتوراه بعد بضع سنين» .

«كان يقضي معظم وقته مع حزب العمال الشيوعي وفي تنظيم التظاهرات التي كان يشارك فيها الطلبة . كانت سمعته تسبقه بعشقه للنساء وحياته البوهيمية . رجع الى بغداد ليدرس في جامعة بغداد وكتب العديد من المقالات في جريدة (برجواز) مدافعا عن الحركة الشيوعية العراقية» .

«كتب في الفلسفة أكثر من كتاب ، ولكن يبقى هذا الكتاب هو الكتاب المقدس للفلسفة الحديثة . تُرجم الى أكثر من خمسة عشرة لغة ويدرس في الجامعات والمعاهد . توفي رفعت في لبنان عند زيارته لبعض الاصدقاء عام 1990 ودفن في مقبرة بيت علمين عند ساحة سوديكوف في بيروت» .

فتحت بان أول صفحة ووجدت أسم ابياها مكتوبا عليها :
أديب الجنوبي 1989 . أنقطع جبل أفكارها بسبب ضحك
بعض الفتيات خلفها . تركت سماعات الموسيقى في أذنيها
لتعطي وهما أنها تستمع الى الموسيقى ، وأصغت الى ما تقوله
الفتيات . سمعت بان الحديث التالي :

فتاة #1 : «كيف تخرج من المنزل بهذا اللباس؟ هل تظن انها
في أفغانستان» .

فتاة #2 : «هل تعتقدن أنها قادرة على سماعنا؟»

فتاة #1 : «طبعاً لا ، أنا لا أستطيع ان ارى اذنيها» قالتها
بسخرية .

فتاة #2 : «أتركها لحالها أنها فتاة مسكينة . أمي تعرف أمها ،
انها تعمل في مستشفى المدينة» .

فتاة #1 : «أنهم يعيشون في بلادنا ، عليهم ان يلبسوا ويتصرفوا
مثلنا . عندما أذهب الى أفغانستان أو باكستان سوف ألبس
مثلهم» .

فتاة #2 : «أنها مولودة هنا في نفس المدينة مثلي ومثلك .
انها من أصل شرقي» .

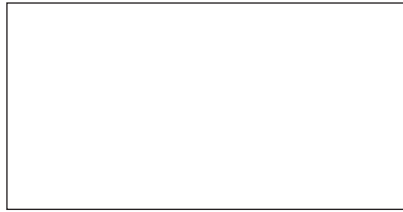
فتاة #1 : «كلهم من نفس الطينة كلهم يشبهون بن لادن» .

لمست بان سماعات الموسيقى ودفعتها بقوة داخل أذنيها
حتى لا تستمع الى هذا الكلام الجارح . دخل الحزن الى قلبها

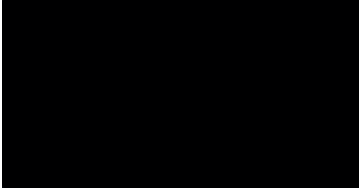
وملأت الغيوم السوداء داخل رأسها . لماذا يكون الانسان قاسيا على رفيقه الانسان؟ أن الانسان من أحقر وأبشع مخلوقات الارض ، يقتل كل من حوله لأجل المتعة وملء الفراغ . تفرقت عيناها بالدموع وأنكمش رأسها ودخل الى القوقعة ليحتمي من الخطر . دفعت بصدرها الى الامام وارتفعت عظام كتفيها الى الاعلى . رفرت أجنحتها الملائكية واحتوتها وفصلتها عن العالم الخارجي .

رجعت تركز في كتابها ، قلبت الاوراق لتجد موضوعاً يغيرها وتوقفت عند هذه الفقرة :

«نُعلم صغارنا منذ السنوات الاولى ان هنالك فرقاً بين اللونين الابيض والاسود . نقول لهم ان الصواب أبيض والخطأ أسود . نعلمهم ان الصادق البريء لونه أبيض والمذنب الكذاب لونه أسود وهذا خط شائع عند الكثير من الجنسيات والقبائل .»
«دعنا نمارس هذا التمرين :



تخيل ان أمامك لوحة بيضاء فارغة ليس مرسوماً عليها أي شيء . الان ضع دائرة بيضاء في نصف اللوحة . لن تستطيع



رؤية الدائرة بسبب تناسق الالوان البيضاء معا . لذلك يمكن ان نقول إن اللون الابيض للدائرة كان سلبييا وغير نافع . الان غير لون الدائرة في منتصف اللوحة الى اللون الاسود . تقفز الدائرة من الصفحة وتقول لك «أنا هنا» . يتناسق اللون الابيض مع اللون الاسود ويصبح اللون الاسود ايجابيا مفيدا» .

«الان أعد نفس التميرين ولكن تخيل ان اللوحة سوداء فارغة ليس مرسوم عليها أي شيء . جرب أن تضع الدائرة السوداء من التميرين السابق في منتصف اللوحة السوداء .

لا تستطيع رؤية الدائرة بسبب اندماج الالوان السوداء معا . لذلك يمكن أن نقول ان اللون الاسود في هذه الحالة مضر وسلبييا . حول لون الدائرة في منتصف اللوحة الى اللون الابيض ، تظهر الدائرة مثل القمر في الليلة الظلماء . يتناسق اللون الاسود مع اللون الابيض ويصبح اللون الابيض مفيدا وإيجابيا .



اللون الابيض واللون الاسود هما وجهان لعملة واحدة . لا يمكن التفرقة بينهما ، فلولا وجود اللون الاسود لن تستطيع أن تميز الابيض والعكس صحيح .

لذلك علينا ان نغير أسلوب تدريس أطفالنا في مرحلة الطفولة ، علينا ان ندرب عقولهم على التفكير المنطقي» .

رفعت بان رأسها من الكتاب وكأن رعدا وبرقا قد صفع وجهها ، أزداد حجم بؤبؤ عينيها من البهجة ، لقد قلبت كل المقادير رأسا على عقب فلقد كانت تفعل عكس ما قاله مظلوم .

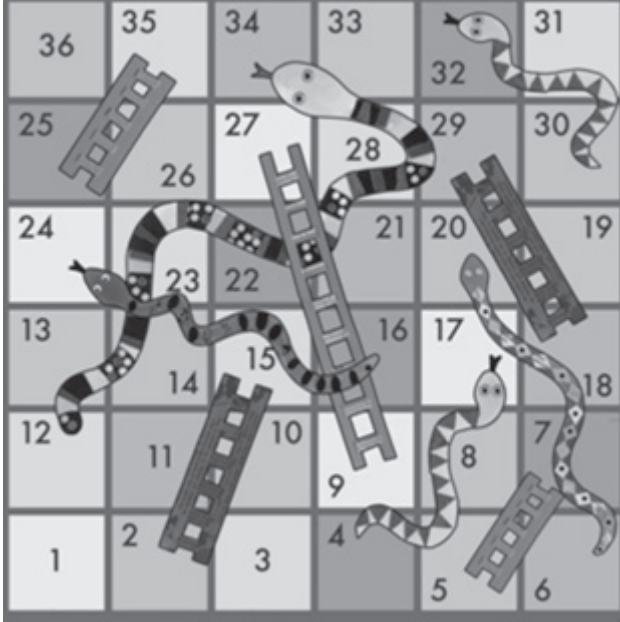
علمتها المدرسة وعائلتها أن اللون الابيض هو الناصع النظيف الذي يشع بإيجابية والعكس هو الصحيح . أن اللون الاسود قذرٌ يمتص كل الاشعة الايجابية مثل الثقب الاسود ولا يبقى غير الاشياء السلبية .

تصفحت بان بعض أوراق الكتاب ولففت نظرها رسومات للعبة كانت تلعبها وهي صغيرة . كانت الرسمة للعبة الافعى والسلم . كان عنوان الصفحة هو «العيش في العراق مثل لعبة الافعى والسلم» .

قال رفعت مظلوم «بعد ان قضيت أكثر من أربعة عقود في العراق وأكثر من عقدين في الغرب ، أستطيع أن اشبه الحياة في الشرق بلعبة الافعى والسلم» .

«كلما انفتح الطريق أمامك ومشيت خطوة أو خطوتين يحدث

لك شيء عشوائي لم تفكر فيه ويرجعك الى الوراء وكأنك وقعت على افعى . كلما تبتسم الحياة وترمي لك زهر النجاح وتقع على سلم تفرح وتقول الحمد لله» .



«يبدو لي ان الحياة في الغرب أسهل ، تقع على القليل من الافاعي ، وإن اجتهدت تصعد السلم بمقدرتك وليس بعشوائية الزهر . أستطاع الغربيون تقليل الاحتمالات التي تؤدي بك الى الافعى» .

«واتمنى ان يتعلم شعبنا وحكوماتنا من الغرب ويقلدون نفس الفلسفة ويوفرون للناس حياة مرفهة ويتركون الاعتماد على القدر غير المعلوم» .

«وحتى أن وقعت على الافعى أو اغلق باب رزقك فيجب عليك بالمشاورة وعدم الاستسلام . يالها من لعبة جميلة يتعلمها أطفالنا ، أنها بالفعل لعبة الحياة» .

تغيرت مشاعر بان وأحست بانها من اذكى الجالسين في الحافلة ، قلبت المزيد من الصفحات ووجدت ورقة بيضاء صغيرة مكتوب عليها قصيدة لنزار قباني مكتوبة بحبر ازرق مع اهداء «الى ش» . كتبت السين بخط أزرق ووضعت ثلاث نقاط بالحبر الاحمر . ابتسمت بان حين رأته أول حرف من اسم والدتها وباشرت بقراءة القصيدة :

حين وزَّع اللهُ النساءَ على الرجالِ

وأعطاني إِيَّاكَ

شعرتُ

أنَّه انحاز بصورة مكشوفة إليّ

وخالفَ كلَّ الكتبِ السماويَّةِ التي أُلِّفها

فأعطاني النبيذَ ، وأعطاهم الحنطة

ألبسني الحريرَ ، وألبسهم القطن

أهدى إليّ الوردة

وأهداهم الغصن

اغلقت الكتاب وأزداد شوقها للرجوع الى المنزل بعد المدرسة

لتقرأ المزيد هذا الليلة ، وعندها سوف تتكلم مع أبيها وجدها
وتقول لهم كم أعجبت بكلام رفعت مظلوم . تذكرت ان عليها أن
تتصل بجدها وتذكره بأخذ دواءه ، وضعت الكتاب في حقيبتها
وأخرجت هاتفها الخليوي وفصلت عنه سماعات الموسيقى
واتصلت بدارها . دق الهاتف مرتين ثم رفعت السماعة في نهاية
الخط ، هنالك ضوضاء وأكثر من حديث يُسمع في الخلفية .
استغربت بان من ذلك ، تعرف جيدا أن جدها ليس عنده
أصدقاء أو معارف يزورونه في المنزل .

- «مرحبا يا جدي ، انا بان هل انت بخير؟»

- «أهلا وسهلا يا حفيدتي» . كانت السعادة تشع من خلال
سماعة الهاتف .

- «أردت ان أذكرك لتأخذ دواءك اليومي ، انا ما زلت في
الحافلة» .

- «نعم شكرا . لن تصدقي من زارني اليوم؟»

- «من يا جدي؟» والشك في صوتها مميز .

أجاب «لقد زارني عمك داوود هذا الصباح . يالها من مفاجأة .
أديب سوف يفقد عقله عندما يعرف ان أخاه جاء لزيارتنا» .

قالت بان باستغراب : «داوود! لم أعرف ان لدي عم بهذا
الاسم . طالما أنك سعيد هذا هو المهم . لا تنسى أن تأخذ
دواءك» .

- «بالتأكيد يا عزيزتي» ثم أغلق السماعه وانقطع الخط .

شعرت بسعادة جدها من خلال سماعه الهاتف ، فوضعت بان الهاتف في حضانها وفكرت ، تذكرت الشجرة العائلية التي رسمها والدها ذات يوم كجزء من الواجب المدرسي في المدرسة الابتدائية . لم تتذكر أسم داوود . ازداد القلق في صدرها ، وأمر وسواسا في قلبها وقررت الاتصال بوالدها . دق هاتف أبيها دون جواب ، وتحول الى البريد الصوتي . لم ترد ان تقلق أبيها فلم تترك رسالة صوتية . اتصلت لمرة ثانية لكنها وصلت الى البريد الصوتي مرة أخرى . وصلت حافلة الركاب الى منطقة الانتظار الاقرب الى المدرسة فنهضت مع بقية الطلاب ونزلت من الحافلة .

شاهدت انعكاسها على زجاج المحلات المجاورة للمدرسة ، خرجت خصلة من شعرها عن الحجاب الذي ترتديه فوق رأسها . بخفة يديها أرجعتها الى مكانها ، ورجع وجهها يشع كالقمر . نصحتها والدها بأن تترك الحجاب في البيت عند الذهاب الى المدرسة ، ولكن بان أصرت على ارتدائه في كل مكان . حتى عندما قالوا لها أنها ترتديه لا من أجل الدين فقط بل لتصبح فريدة من نوعها في صفها وسوف تكون هدفاً الى كل من يكره دينها . أجابتهم بإصرار بانها تحب ان تقلد جدتها بارتداء الحجاب .

دق هاتفها وهي تمشي ، نظرت الى شاشه الهاتف تقول
«بابا» .

- «صباح الخير يا والدي . هل وصلت الى العمل؟»

- «صباح الخير بان ، لقد استغربت عندما وجدت مكالمتين
منك» .

- «لقد حاولت الاتصال بك عندما كنت في حافلة الركاب» .

- «خير يا ابنتي هل هنالك مشكلة؟»

- «لقد اتصلت بجدي لأذكره بأخذ دواءه وكان صوته غريبا» .

- «كيف غريبا؟» ازداد الشك في صوته .

- «قال لي أن عمي داوود قد زاره اليوم» .

- «داوود؟» سكت صامتا لثانية لكنها بدت لها كأنها أشهر

او سنين .

- «نعم ، قال لي أن أخوك داوود لدينا في المنزل . وسوف

تفرح عند سماع هذا الخبر» .

- «هل أنت متأكدة انه قال داوود» .

- «هل هنالك مشكلة يا والدي» امتد الخوف على صوتها

وأصبحت كل ثانية تمر مثل سنة .

ردّ أديب : «لقد توفي داوود في 1991» .

ثاناتوس*

﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾

ثم الى ربكم ترجعون﴾

(سورة السجدة آية 11)

دقت الساعة الخامسة صباحا ، وأستيقظ جواد الجنوبي ليصلي الفجر . فتح عينيه ، ونظر الى سقف الغرفة ، وأصغى الى اصوات الطيور في الخارج . كان المنزل هادئا والسكان نائمون بهدوء واطمئنان . أصغى الى آلام جسده المنخور الذي تعود عليها منذ أن سقط اسيرا للمرض . لقد نسى الشعور بالحوية والعنفوان منذ زمن طويل ، دخل المرض رثتيه ، فأصبحت ثقيلة تمتلي بالماء مع كل شهيق وزفير . تحتاج الى اجراء طبي لكي تُفرغ من السوائل الملتزمة كل اسبوعين . كلما يشعر بطعم معدني في فمه يتذكر الاجهزة التي يحشرونها داخل فمه ، يشعر بالرغبة في التقيؤ فيضع انفه قريبا من يده اليسرى المعطرة

* ثاناتوس : إله الموت الرحيم في الاساطير اليونانية .

ليتحسن مزاجه ، أنها فكرة ناجحة اقترحتها زوجة ابنه شذى .
كلما يستيقظ صباحا ينظر الى جانبه باحثا عن زوجته بثينة
بأمل ان يراها بجواره ، حتى في بعض الاحيان ينادي عليها
معتقدا انها في الحمام بجوار الغرفة . تتغير دقات قلبه عندما
يتذكر ان زوجته قد توفت منذ سبع سنوات . ومن إحدى عاداته
المسائية ان يضع القليل مما تبقى من عطرها على الوسادة
الخالية بجواره وينام محتضنا الوسادة ويستنشق رائحة حبيبته .
نظر الى سقف الغرفة متذكرا السننتين اللتين عاشها بمفرده
في المنزل الذي كان مزدحما بالضجيج والصخب ، وكلما يتذكر
الوحدة يشعر بالغيثان ، أصبح الفرد الوحيد الذي يذهب نهاية
كل شهر الى المقبرة ليزور أسرته . يمسح التراب والغبار عن
قطعة مصنوعة من المرمر نحت عليها أسمها منتصبة فوق قبر
زوجته ، يصلي ويدعو لها بدخول الجنة من اوسع أبوابها وينتهي
بقبر أبنة البكر يمسح التراب ويزيل سيقان النباتات المجاورة
لقطعة المرمر .

تسيل الدموع على خديه ويصلي لابنه ويدعو له بأن يغفر
الله ذنوبه ، وان يجنبه نار جهنم . ثم يعود الى المنزل وحيدا ،
يوقد شمعتين ويضعهما بجواره ويجلس على كرسيه الهزاز ،
ويخرج البوم الصور من مكتبته . يضع الهاتف بجوار الشمعتين
وينتظر مكالمة من ابنه الاصغر أديب . تصفح الالبوم رافعا

الورقة الصفراء الشفافة عن كل صفحة في الالبوم ، تبدأ الصور بالأبيض والاسود ، صورة لبثينة بتسريحة شعر قصير مقصوص على الموضة في تلك السنين وهو واقف بجوارها مثل حسان عربي ، وخلفهما حافلة ركاب حمراء ذات طابقين مكتوب عليها حافلة لندن للركاب .

يقلب عدداً من الصفحات ويتوقفُ امام صورة قديمة ، بثينة حامل بأبنة البكر تقرأ مجلة اجنبية واضعة ساقاً على ساق ، تذكر كيف كانت جميلة حسناء لديها شخصية ساطعة تشع بالحنان عندما تدخل الى اي مكان . كان أصدقاؤهم يضحكون ويقولون عندما تدخل الى الصالة «أفتحوا الستائر لقد جاءت الشمس الدافئة» .

قال جواد لنفسه : «الله يرحمك يا بثينة لقد كنتِ دائماً محقة إذ اردت ان تتركي العراق» .

نقل نظره الى الصفحة المجاورة ورأى ابنه داوود؛ صغير الحجم جالساً على ميزان للأطفال يذكر وزنه ، تقيس الممرضة طوله وتعد اصابع يديه وأقدامه . لون جسده غامق يبكي باحثاً عن ثدي امه . تذكر كيف كان عنيدا متشبثاً بأحشاء امه مثل قيصر وتم اخراجه الى الدنيا بعملية قيصرية كانت تمارس في العراق في بداياتها .

خرج نائماً أزرق اللون ، فقرصه الطبيب من قدميه فأستيقظ

وسحب شهيقاً فنفخ الله الحياة في روحه وأصبح وردى اللون .
صورة أخرى وهو يحمل ابنه واضعاً فمه قريباً من أذن الوليد .
تذكر كيف جرب ان يؤذن في أذن داوود وصرخ الطفل الرضيع ،
أخذت الممرضة الطفل منه ووضعتة على ثدي امه . مرت
الايام امام عينيه بسرعه تاركة حزناً انغرس في جفنيه . أبتسم
وترقرقت عيناه بالدموع . نظر الى الاعلى لكيلا تتساقط الدموع
على الألبوم ، وقال لنفسه «الله كم اشتقت لكم» . قرر النهوض
من الفراش ووضع قدميه على البلاط البارد باحثاً عن الشبشب
المغربي الذي كان هدية من ابنه أديب مطلع السنة السابقة .

رفع طقم أسنانه من قدح الماء ووضعه في فمه ، يطبق فكيه
ويضغط عليها لتجلس بأحكام . اتجه الى الحمام ليتوضأ . بحث
عن زر الضوء بيده اليسرى ووجده بعد محاولتين . وقف امام
حنفية المياه ورفع كمي قميص النوم الى كوعه ، وقال بسم الله
وفتح حنفية المياه . تمضض ثلاث مرات بإدخال الماء بواسطة
كفه الايمن . ثم أستنشق الماء ثلاث مرات بإدخال الماء في
أنفه . بعد ذلك غسل وجهه ثلاث مرات وغسل يده اليمنى الى
الكوع ثلاث مرات وفعل نفس الشيء بيده اليسرى . مسح رأسه
وأذنيه وانتهى بغسل الرجلين ثلاث مرات الى الكعب .

خرج جواد من الحمام تاركاً ضوء الحمام مشعاً ، وتناثرت
بقايا المياه على بلاط الحمام ، باشر بالصلاة ودعا الى والديه

وكل من مات من أهله وانتهى بأديب وشذى وبان . سمع صوت خروج أديب من المنزل وصوت دخوله الى سيارته . قرر النزول الى المطبخ ليعد الفطور لنفسه ولحفيدته ، اتجه الى المطبخ ووجد بان في انتظاره . كانت تملأ ابريق الماء من الحنفية ووضعت في مكانه ، ضغطت على الزر الكهربائي ليغلي الماء . دخل جواد وقال «صباح الخير يا بان» .

- «صباح الخير يا جدي . لماذا تستيقظ مبكرا أنت بحاجة الى الراحة؟»

- «ان العجزة يستيقظون في الساعات المبكرة دائما لان ما تبقى من الحياة أقل مما فات» قالها بابتسامة أظهرت أسنانه الصفراء .

- «لك طول العمر يا جدي لا أحبك عندما تتكلم هكذا» . غطى صوت غليان الماء على كل الاصوات في المطبخ مما جعل سكانه يلتزمون الصمت .

- «أين والدتك؟ لم اسمع خروج سيارتها هذا الصباح . هل مازالت نائمة؟»

- «كلا ، لديها مناوبة ليلية كل هذا الاسبوع ، سوف تعود الى المنزل قريبا» . حضرت بان حقيبتها واستعدت للذهاب الى المدرسة .

- «كلما أراك ترتدين الحجاب أتذكر جدتك رحمها الله ، إنك

تشبهينها بالفعل» . امتزج الحنان بأوتار صوته .

- «أنا أحب أن ارتديه لكثرة حبي لجدتي ، كنت أتمنى لو انها عاشت لتراني ارتديه» وانتهت من تحضير حقيبتها ورفعتها على كتفها .

- «نعم يا حبيبتي أنا أتمنى لو انها ماتزالُ بيننا» . قالها بنبرة حزينة مما أثار مشاعر بان فاحتضنته وقبلته على خده الايمن وقالت له «يجب عليّ الذهاب الى المدرسة ، سوف أتصل بك لتذكيرك بتناول الدواء» .

أبتسم جواد ومسح عينيه وقال لها : «وداعا يا عزيزتي ، سوف أنتظر مكالمتك» .

خرجت بان من المنزل وأغلقت الباب خلفها ، أخرج جواد قدحاً من خزانة المطبخ ، ووضع به كيساً من الشاي وملاه بالماء الساخن .

شغل الراديو الذي كان بجانب الخزانة ويحث عن قناة عربية ، وبعد المرور ببعض القنوات الاجنبية تذكر أنه لا يعيش في العراق ، أغلق الراديو وأخذ قدح الشاي معه وأتجه الى غرفته ليقرأ كتاباً لعلي الوردي .

قال لنفسه : «سوف أخذ الدواء اللعين بعد ان أشرب الشاي ليتحسن مزاجي» .

دخل الى غرفته ووجد ضوء الحمام مضاء ، تخيل شيئاً

ودق قلبه بسرعة وقال بصوت خافت : «بثينة هل أنت هنا؟»
لم يتماسك مشاعره ، ودخل الى الحمام بسرعة ، ولم ينتبه
الى البلاط المبلل فتزحلق . طار قدح الشاي بطريقة عشوائية
وارتطم بالحائط ، ارتفعت ساقه اليمنى الى الاعلى والتوت ركبته
اليسرى تحت وزنه ، اتجه جسده الى الخلف ليوازن ما يحدث
لساقيه ، ارتطم رأسه بالبلاط من الخلف وأغلق عينيه .

بعد فترة وجيزة من الزمن فتح جواد عينيه فأغرقت الاوجاع
مشاعره ، اوجاع في الساقين اوجاع في الركبتين واوجاع في
رأسه . نظر الى سقف الحمام ، ضوء ساطع يشع على وجهه
ومروحة سقف الحمام تدور كعقارب الساعة . أحس بالبلل من
خلال ملابسه ، وطغى عليه الخوف من أن الشعور بالرطوبة كان
من دمه وليس من الماء . وضع يده على رأسه وبحث بشكل
فضولي عن بقع مبلله في رأسه متوقفاً دماً وردي اللون حار
الملمس على يده .

حرك عينيه الى الاسفل ونظر الى جسده الساكن على
الارض ، حرك أصابع قدميه وتبين له أن أظفر أبهام قدمه
اليمنى قد أنكسر وأصبح بنفسجي اللون . أنتبه الى بقع الماء
التي كانت على أشكال بحيرات صغيرة متجمعة على المرمر
الاخضر منتظرة أشعة الشمس لتتبخر . تذكر ان الماء قد جاء
من الوضوء الصباحي الذي يمارسه هذه الايام بدون تفكير .

أسند ذراعيه خلف جسده وثنى ركبتيه ليسند نفسه ، استخدم اليد اليمنى ليتسلق مغسلة الماء بجواره . بعد أكثر من محاولة أستطاع الوقوف على قدميه ونظر الى المرآة باحثاً عن جروح وكدمات . لم يجد أي جرح في وجهه وقال لنفسه «الحمد لله مرت على خير» .

قرر أن يضع منشفة تحت قدميه حين يتوضأ حتى لا يتكرر الحادث مرة أخرى ، أتجه الى خزانة المناشف التي كانت امام سريره . عند خروجه من الحمام وجد فتى في قرابة العشرين من العمر جالسا على فراشه . جلس الفتى بطريقة أنثوية مخفياً ما بين قدميه ، أغلق ساقيه ووضع يده على ركبتيه . كان الفتى حليق الرأس والشارب ، أصبح لونه أصفرا كلون الصحراء ، وثمة دوائر صفراء مخضرة حول عينيه ، تشققت شفثاه وظهرت الأوردة الزرقاء من خلال جلده الجاف . نحيل الجسد وحافي القدمين ، تمزق سرواله عند الركبتين وظهرت عظام صدره من خلال قميصه الممزق .

قال الفتى عندما دخل جواد الى الغرفة : «لقد اشتقت اليك يا ابي» .

لم يصدق جواد ما يراه واسند جسده وانحنى على المكتبة بجوار فراشه وقال لنفسه : «كان المفروض أن آخذ الدواء باستمرار . لقد بدأت الهلوسة» .

- «أعذرني يا أبنني لكنني لم أرك من قبل ما هو أسمك؟»
خرج صوته بصعوبة فلم يزل تحت صدمة الحادث .
- «داوود يا والدي» . ، قالها الفتى وكأن بؤس الدنيا قد أنزاح
عن نفسه .

- «هل أنت بالفعل أبنني داوود؟ لقد اختفيت منذ عام 1991 .
لقد ماتت والدتك عليك من الحزن . لم يبق مكان لم نبحت
فيه عنك . أين اختفيت كل هذه السنين؟ ولماذا أصبح منظرلك
هكذا؟»

أجابته داوود «أجلس بجانبني يا أبي ، لقد اشتقت الى رائحة
عطرك . لقد بكيت على فراقكم . كيف حال أمي وحال أديب؟»
جلس جواد بجانب أبنه البكر أحتضنه وقبله من راسه الحليق ،
وضع داوود رأسه على صدر أبيه باحثاً عن تلك الرائحة التي
تذكره بطفولته .

- «ماذا حدث لك بعد الحرب 91؟ أين اختفيت؟ قال لنا أديب
أنك كنت مع أصدقائك آخر مرة شاهدك فيها» وضع جواد يده
على خد الفتى بلطف ثم أخرج مسبحة فيروزية كانت لا تفارق
يده ، حرك ومرر خرزات المسبحة بين اصابعه ليهدئ نفسه .

أجابته داوود : «لقد كنت مع أصدقائي نتمشى في المحلة ،
هل تذكر كيف كانت تلك الايام بعد الحرب . لا وجود للشرطة
أو العسكر ، كنا ندق أبواب الناس ونسألهم إن كانوا بحاجة الى

أي شيء . كانت أكثر المتطلبات هي النفط والرز» .

«بدأنا انا وزملائي نعمل كحراس ، كل منا يدافع عن شارع في محلته . بادر الناس بالعودة الى ديارهم بعد أن شعروا بالأمان» .
قاطعته جواد : «هل كان هذا من فعاليات الحزب الشيوعي في خلال الحرب؟»

- «نعم يا أبي ، لقد كنت أنظم تحركات رفاقي وأكتب لهم منشورات يتصفحونها خلال وقت فراغهم» .
- «ثم ماذا حدث؟ أين ذهبت؟»

- «استعادت الحكومة سيطرتها على محلاتنا وباشروا بغرس جواسيس في منظماتنا وفي ذلك اليوم قال لي صديقي تعال نزرر أستاذنا في جامعة بغداد فهو سوف يسمح لنا باستخدام ماكينة التصوير لطباعة منشوراتنا الحزبية ويمكن لنا أن نوزعها على مساحة أكبر في المحلة» .

«بعد أن ركبت السيارة واتجهنا الى الطريق السريع انتبهت بانه يأخذني باتجاه معاكس لاتجاه الجامعة . عندما سألته الى اين ذاهبين قال لي أنه يريد أن يقف عند منزله ليغير قميصه المتسخ» .

«عندما وصلنا الى بيته ، دلفنا الى الداخل فقفز عليّ ثلاثة رجال مرتدين الزي العسكري ضربوني على رأسي وفقدت الوعي» .

اختفى النور من وجه جواد وفتح فمه بدهشة ، وضع يده اليمنى على جبينه وأغلق عينيه وقال : «يا إلهي لقد عذّبوك الجردان!»

- «نعم يا أبي بعد ان استفتقت وجدت نفسي في الصحراء مربوطاً على عمود خشبي . حلقوا رأسي وشاربي ، ضربوني بالعصى في كل مكان . قالوا لي أنهم يريدون ان يجعلوا مني مثلاً لكل شيوعي في البلد . صوروني بكاميرة الفيديو ونشروا الذعر بين رفاقي» .

«ارادوا أن أعطيهم أسماء كل رفاقي في الحزب ولكنني رفضت فعذبوني بقلع أظافر يدي . حرمني من الطعام والشراب ، ارادوا معرفة من الذي وجهني الى الحزب ومن أدخل هذه الافكار في رأسي . قلت لهم أفضل أن اموت على أن أعطي أسماء أساتذتي ورفاقي وكان من المستحيل أن أعطيهم أسمك» .

«لكن قل لي يا ابي ماذا حدث لكم؟ كيف حال أمي وحال أديب؟»

أجابته جواد بحزن «لقد توفت أمك بعد أن قضت باقي عمرها تبحث عنك في كل مكان . أصابها مرض السكر واضطرتنا الى بتر ساقها في آخر عمرها . لقد توفت قبل عامين ، لقد دفناها بجانب قبرك» .

اغرورقت العيون وقال داوود : «أعذرني يا ابي لقد دمرت حياتكم» .

أجابه جواد «كلا أنا السبب ، والدتك لم تغفر لي طوال عمرها ، وبقت تذكرني حتى يوم وفاتها أنها أرادت ترك العراق والعيش في الغرب» .

- «وماذا عن أديب؟» سأل داوود .

- «لقد تخرج أديب من كلية الحقوق وأصبح محامياً بارعاً .

لقد تزوج شذى وأنجب فتاة جميلة اسمها بان» .

- «وماذا عن سعاد؟» سأل داوود باستغراب .

- «لقد تزوجت وهاجرت الى السويد ، هذا كل ما أعرفه» وأخذ

نفساً عميقاً ثم رجع يتمتم اسماً لله الحسنى . في هذا اللحظة

دق هاتف المنزل الذي كان في الصلاة السفلية . قال جواد :

«أعذرني يا أبني هذه حفيدتي تذكرني بموعد أخذ دوائي» .

خرج جواد من الغرفة ونزل السلم الى الصلاة ورفع سماعه

الهاتف ، كان صوت بان يأتيه من حافلة الركاب :

- «الو مرحبا» .

- «مرحبا يا جدي أنا بان كيف حالك؟»

- «أنا بخير يا عزيزتي الحمد لله» غمرته السعادة ونسى أن

يقول لها عن حادث الحمّام .

- «أحببت أن اذكرك بأن تأخذ دواءك اليومي» .

- «بالتأكيد شكرا لك ، لن تصدقي من زارني اليوم» .

أجابته بان «من يا جدي؟ إبراهيم الخباز؟» كان صوتها بعيدا متقطعا .

- «لا ، لقد زارني عمك داوود هذا الصباح» .

- «لم أعرف أن لدي عم بهذا الاسم . لقد توقفت حافلة الركاب ويجب عليّ أن أغادرها . لا تنسى أن تأخذ دواءك» ثمّة استغراب في صوت بان .

أجابها جواد «أكيد ، أكيد!» ثم أغلق سماعة الهاتف .

عاوده الاحساس بالغثيان فأتجه الى المطبخ ليأخذ دواءه وقرر أن يأخذ قدحاً من الماء لابنه ، صعد الى غرفته مرة أخرى وبذهنه أكثر من سؤال . شعر بثقل في رأسه وأستمر الشعور بالغثيان .

كان داوود مازال جالسا على الفراش ولم يتحرك ، جلس جواد بجانبه وعرض عليه قدح الماء . رفض داوود وقال إنه لا يستطيع شرب الماء . استغرب جواد وقال : «لكنك تبدو عطشاناً يا أبنني ، أن لون جسدك أصفر» .

ابتسم داوود ابتسامه غريبة وتغير صوته الى صوت حيواني وقال : «أنا احمل رسالة لك» . شعر جواد برطوبة في أذنه عندما لمسها ونظر الى يديه فوجد بقعة من الدم الاحمر الحار . أحس بضعف في جسده وارتخت ساقيه ، وضع رأسه على صدر أبنه . قال داوود : «كل من عاش في بغداد يعلم أنه عذاب مؤقت تغتسل فيه النفوس البريئة بعد الموت . اليوم يعيد نفسه ، ولكن

الارواح لا تلاحظ هذا وتبقى مشغولة في العبادة والعمل» .
ولولا كرونوس* الذي يدق ناقوس الوقت في كل ساعة وفي
كل عام فلن تلاحظ الارواح أنها بلغت وهومت» .
«الانسان لا يرى الموت قادماً ويبقى يغذي شهواته حتى
النهاية ولا يرى ثاناتوس وهو يأخذ الارواح في نومها» . سالت
الدموع على وجه جواد وتنفس ببطء ، وقف قلبه عن النبض
وامتلأت رثاه بالماء ، وتوقفت يده على إحدى حبات الفيروز
وفقدت المسبحة رفيقها الى الابد .

* * *

خرجت شذى من المستشفى وتحركت ببطء باتجاه سيارتها ،
تحمل حقيبتها في يدها اليمنى وسيجارتها في يسارها . طعم
القطران على لسانها ، تحس ان فمها بحاجة الى تنظيف فشراب
القهوة قد ترك بصمة على أسنانها . ألم يتزايد في قدميها تشعر
أن ظهرها مقسوم لنصفين ، أنهت المناوبة الليلية وتحلم بالعودة
الى المنزل لتأكل اي شيء وتذهب الى النوم مبكرا .
تتكلم مع نفسها وتقول : «سوف يكون المنزل فارغا ، بالتأكيد
ذهب أبو أديب يتمشى الى المحلات القريبة مثل كل يوم .
سوف أغسل جسدي بسرعة وأتناول الطعام وأتجه الى الفراش» .

* كرونوس : إله الوقت في الاساطير اليونانية

توقفت أمام سيارتها ورأت انعكاس وجهها على زجاج الباب الجانبية .

قالت لنفسها : «يجب أن أتوقف عن التدخين وشرب القهوة» .
ثمة دوائر سوداء وخطوط مائلة تحاصر عينيها وتجعلها أكبر سنا ، جلست في السيارة ووضعت هاتفها في مكانه وتحركت .
في اللحظة التي خرجت من باحة وقوف السيارات دق هاتفها ،
كان اسم أديب يشع على شاشه الهاتف .

أجابت : «مرحباً يا أديب ، صباح الخير ، هل وصلت الى العمل؟»

أجاب أديب : «صباح الخير شذى ، كيف حالك هل انتهت المناوبة الليلية؟»

«نعم أنا في طريقي الى المنزل . هل تحتاج شيئاً؟» قالتها مستغربة أن يتصل زوجها بها في الصباح .
- «لقد اتصلت بان بي وقالت لي أن جدها لديه زائر» .

أجابت شذى : «زائر؟ من؟»

- «داوود» . ولم يقل كلمة اخرى .

بعد فترة قصيرة من الصمت قالت شذى «داوود؟ أين في منزلنا؟ لا بد أنها كانت على خطأ» .

- «ربما نسي ابي أن يأخذ دواءه وبدأ بالهلوسة ، هل من

الممكن أن تطمئني عليه ثم تتصلي بي» .
- «بالتأكيد سوف أصل الى المنزل بعد عشر دقائق . لا تخف
سوف أتصل بك على الفور» .

«شكرا يا حبيبتي» وانتهت المكالمة .
سأقت السيارة بعجلة وهي تنظر الى الساعة بين لحظة
وأخرى ، أزداد صوت الوسواس في قلبها وناقشت الموضوع مع
نفسها .

«أين كان داوود بعد كل هذه السنين؟ كيف عاش كل تلك
الفترة لوحده؟ وكيف وجدنا؟» عضت على شفتها السفلى وهي
تفكر واصطبغت بلون الحمرة اسنانها الامامية .

«ماذا سوف تفعل سعاد عندما تعلم أن داوود قد رجع الى
حياتنا . سوف أتصل بها مساء اليوم . لا أعلم أنها سوف تفرح
أم تحزن . لقد مرّ أكثر من عشرين سنة . تزوجت ولديها أطفال
يتكلمون السويدية بطلاقة» .

تذكرت كيف كانت معارضة لفكرة أن يعيش ابو أديب معهم
في بيتهم الصغير . اضطروا الى تركيب حمام صغير بجانب
الغرفة فهو يحتاج الى استخدامه بصورة دائمة ، لذلك باشرت
شذى بأخذ أكثر من مناوبة ليلية في كل أسبوع كي يستطيعوا
دفع الفواتير . تبرعت ابنتها بالعمل يوم واحد خلال الأسبوع
لمساعدة أهلها ولكن شذى كانت معارضة لأسباب أخرى .

كان جواد قد أحتج على زواج أبنه أديب منها ، ولولا تدخل زوجته بثينة لما تم عقد القران . عندما طلب أديب منها أن تكون متسامحة مع والده رفضت وذكرته كيف كان والده عقبة كبيرة بينهما قبل عشرين سنة . توسل أديب ووعدها أنه سوف يعتني بكل متطلبات والده ولن يكلفها باي شيء . عندما وصل جواد الى مدينتهم ورأت كيف تحول ذلك الرجل العنيد الى شخص اليق لم تصدق عينيها . لقد تبخر جبروته وأصبح ضعيفا منكسرا ، لم يبق شيء من شعره واختفى الضوء من عينيه . بعد يوم من وصوله وجدت نفسها وحيدة في المنزل معه ، طلب منها أن تجلس في المطبخ وسوف يعد الشاي لهما .

بدأ الحديث وقال : «أحب أن أعتذر اليك يا شذى . لقد كنت مخطئاً تجاهك وتجاه عائلتك» .

بقت شذى ساكنة ولم تقل شيئاً .

- «لقد كنت انساناً منهمكاً بالمال والشراب ، لا أهتم لمشاعر الاخرين . كنت مشغولاً او فر لقممة العيش لعائلتي ، وكنت متكبراً وأصبحت أعمى عن مشاعر أطفالي . لم أستفق من هذه الغيبوبة الا عندما اختفى داوود من بين أيدينا ورأيت كيف تحولت زوجتي بثينة من قنديل يشع حياة الى بئر مليئة بالمرارة . بعد أن توفت بثينة لم يبق لدي رفيق أو صديق ، حطمت الحرب البشر ولم يبق لديهم سبب للعيش في البلد .

سافر معظم الجيران وخلت المحلة من سكانها . بعد سنتين من الوحدة وجدت نفسي أفكر بكل من أخطأت بحقه وبقته صورة وجهك تأكل وتشرب معي . أنبني ضميري ونخر السرطان جسمي فسامحيني يا أبنتي» .

- «لم يبق لدي المزيد من الوقت فأرجوا ان تغفري لي وتدعيني أموت بجانب أهلي» .

ذاب الجليد الذي كان يحيط قلب شذى وحضنت والد زوجها وقالت له : «لقد اشتقنا إليك يا عمي ، بان تسأل عنك باستمرار» .

وضع جواد يديه في يدي شذى وشكرها وقال : «لن أخيب ظنك يا عزيزتي ، دعيني أعد الشاي» .
قال شذى «عفوا يا عمي دعني أساعدك» .

وصلت شذى الى المنزل وأوقفت سيارتها في مكانها ونزلت بسرعة ، دخلت الى المنزل ووجدت كل شيء على حاله .
دواء جواد على طاولة الطعام ، بخار يخرج من أبريق الماء تاركاً علامة على زجاج المطبخ . نادى شذى «عمي هل أنت بخير؟»
لم يجب أحد . ترددت بالنداء على داوود وكان ذلك عكس غريزتها ، صعدت السلم بحذر خوفاً أن يكون نائماً . وجدت ضوء الحمام مضاءً ارتاحت وقال لنفسها : «ربما كان في الحمام يستحم أو يتوضأ» .

عندما وصلت الى باب الغرفة وجدت جواد نائماً بطريقة غريبة على فراشه كأنه كان جالسا بجانب أحد . وجدت اثار أقدام مبلة من مياه خارجة من الحمام . دخلت الى الحمام ووجدت قدح الشاي المكسور والزجاج في كل مكان ومياه تحت المغسلة . رجعت وجلست بجانب جواد وحركته بيديها ، كان جسده متصلباً ووجدت بقعة من الدماء على أذنيه . حاولت قياس نبضات قلبه ولكنها لم تجد أي نبض ، بكت على فراق والد زوجها وجد ابنتها .

اتصلت بأديب ، اجاب أديب من أول رنة .

- «بشري يا شذى ، ماذا حدث؟»

أجابت شذى : «البقية في حياتك يا أديب . لقد توفى والدك» .

الاستشعار عن بعد

وقف أديب أمام حائط بني اللون أنشقت طبقة الطلاء وتبين لون الحجر الاصيلي ، انتبه الى العرق الذي يُغطي يديه فوضعهما على الجدار ليبردهما . ثمة عدد من الآيات القرآنية معلقة باتجاهه وتبين له أن لون الاوراق قد تغير بسبب شروق الشمس عليها وتقوست زواياها الى الاعلى .

رفع رأسه الى الاعلى ووجد يافطة تقول : «المغسل» وبخط كوفي كتب (أنا لله وأنا إليه راجعون) ثم تحتها «يرجى عدم الكلام في الداخل» . وقف أمامها وأستمع الى الاصوات في الداخل ، كل ما كان قادراً على الاحساس به هو طنين مضخة الماء ورائحة الكافور . وجد مقعداً صغيراً جوار الباب وبجانبه جريدة اليوم وعليها العنوان «المهاجرون يحتلون بلادنا» وبجانب العنوان صورة كبيرة لمجموعة من المهاجرين العرب يرتدون ملابسهم التقليدية ، حاملين حقائبهم وأطفالهم على أكتافهم ، كل ما يبحثون عنه هو لقمة العيش يأكلونها بسلام . جلس على

المقعد وتصفح الجريدة بدون اهتمام لأي موضوع بحثت عيناه عن صور تجذب أنتباهه .

منع نفسه من ان تستعيد أي ذكرى لوالده كي لا يبكي ، تذكر كيف كان داوود يناديه «أديبة» يقولها بطريقة أنثوية حتى يمازحه حين كان يبكي في المحلة . شريط من الصور يمر امام عينيه ومهما جرب ايقافه يفشل في كل مرة ، تذكر كيف فرح والده حين ركب الدراجة الهوائية لأول مرة وأصبح قدوة في الصف السادس الابتدائي .

كان جواد يفضل اللعب مع أطفاله بعد قيلولة الظهيرة وغروب الشمس ، كانت من أحلى ذكريات أديب اللعب مع داوود في حديقة بيتهم حين يرشهما والده بخرطوم المياه في فصل الصيف ، وكيف كان والدهما يقبل أمهما صباح كل يوم وهي عادة يطبقها في بيته يوميا مع زوجته شذى . كانت لعبة أديب المفضلة حين كان صبيا ان يركب على ظهر والده كالحصان ويشرع جواد بالصهيل ويتحرك ببطء ثم بسرعة فيقع على سجادة الصالة ويدغدغ والده بطنه ، يتوسل به ان يتوقف فهو لا يستطيع التنفس من الضحك المستمر وتمتلئ عيناه بالدموع .

أنقطع شريط الصور بعد أن انفتح باب المغسل بهدوء وخرج رأس يبحت عن أديب ، كان صاحب المغسل شاباً ورث المكان أبا عن جد . كان في الثلاثينيات من العمر وغزا الشيب كالثلج

جوانب شعره ، حليق الشارب ذو أنف كبير بالنسبة لوجهه ،
ضيق الكتفين ، يرتدي قميصا رمادي اللون مع بنطلون أزرق
مرفوع الى ركبتيه ، يرتدي نعلاً مبللاً تاركاً خلفه آثاره على
ارض المغسل .

بأشربالكلام وقال : «البقية في حياتك» قالها بطريقة روتينية .

ثم قال : «هل تريد ان تساعدني في غسل المرحوم؟» .

تردد أديب في البداية فلم ير شخصاً ميمتاً في حياته لكن
وقوف الشخص بجانب الباب منتظراً جواباً فورياً منه ، جعله
يشعر ان الجواب يجب ان يكون إيجابياً ، لذلك هز رأسه وقال :
«بالتأكيد ، مرحباً ، أسمى أديب» .

قال الشخص : «مرحباً يا أديب أنا غسان تفضل» .

فتح غسان الباب على مصراعيه ، وخرجت رائحة الكافور
كأنها تبحث عن فريسة لها ، تحرك أديب ببطء ودخل الى الغرفة
وأغلق غسان الباب خلفهما . كانت الغرفة كبيرة الحجم مضاءة
بضوء الفلورسنت الابيض تعطي إحساس مستشفى طبي .

ثمة حوض حديدي للاستحمام يقبع في منتصف الغرفة ،
وهناك حنيتان للمياه في الجهة اليمنى من الحوض . رفوف
كثيرة تقع في جهة واحدة من الغرفة تحمل مناشف الحمام
مرتبة ومنظمة من الاصغر الى الأكبر حجماً . مختلف العطور
والاعشاب موزعة حول الحوض وقوارير وزجاجات مفتوحة حول

صندوق أبيض تخرج منه قفازات زرق للاستخدام لمرة واحدة ومع كل هذا الاثاث ينام والد أديب عاريا على ظهره في إحدى زوايا الغرفة ووضعت منشفة بيضاء لتغطي عورته .

انتبه أديب الى جسد والده الذي يبدو انه تصلب وأصبح مستقيما كالعصا ، وانكمش وأصبح صغير الحجم . ازدادت دقات قلبه حين رأى جسد والده أمامه بدون حركة مثل أي حيوان قد مات مخلفا جسده وراه ولم يتبق منه شيئا سوى أعضاء جسدية سرعان ما تصبح غذاء لدود الارض .

قال غسان : «هل غسلت أنسانا ميتا من قبل؟» .

- «لا ، هذه أول مرة» .

- «لا تهتم سوف أغسله بنفسي ويمكنك مساعدتي إن احببت» رد عليه غسان مبتسما .

أبتسم أديب ولم يرد عليه وقال غسان : «دعنا نبدأ بمراسيم الغسل ، سوف نحمل والدك من هذه الزاوية الى المغسل بواسطة النقالة الطيبة» .

رفع أديب والده من كتفيه وحمل غسان الميت من قدميه ووضعاه على النقالة واتجها به الى زاوية المغسل ثم رفعاه بنفس الطريقة ووضعاه على المغسل . أخرج غسان قفازين زرقاوين من الرف المجاور لهما وأعطاهما الى أديب ، وضع أديب القفازات بدون كلام وأنتظر غسان ليفعل الشيء نفسه .

نظر غسان الى أديب وقال له : «سوف تحتاج الى هذه القفازات» .

اتجه غسان الى موضع رأس جواد ، وفتح حنفية الماء البارد والساخن في نفس الوقت ووضع يده تحت الماء منتظرا ان يصبح فاترا ، وردد وقال : «بسم الله» ثم نظر الى أديب ورفع حاجبيه الى الاعلى كأنه يرسل له رسالة صامتة وفهم أديب على الفور وباشر يردد ويقول «بسم الله» .

رفع رأس الميت وكتفيه الى الاعلى وبدت علامات الاستفهام على وجه أديب فقال غسان : «نرفع راس الميت حتى تذهب كل الاوساخ الساقطة من الجسد مع المياه الى المصرف» .

أخذ قطعة من القماش من جانب المغسل وحركها على جسد الميت ليغسله من الاوساخ وكلما ينتهي من قطعة قماش يرميها في حاوية النفايات ويأخذ قطعة جديدة ويدعكها على بطن الميت وعورته .

قام غسان بتكرير نفس الاجراء ثلاث مرات ، وعندما أنتهى من غسل الجسد ، ابتداء بتوضؤ جواد للمرة الاخيرة . أدخل الماء في أنفه وفمه ثم أخذ قطعه من القطن والصفوف الرطب ونظف أنف الميت ثم نظف أسنانه وانتهى بتنظيف الوجه وما تبقى من شعره . طلب غسان من أديب أن يضع القليل من الكافور في الماء ، وغسل الجسد للمرة الاخيرة وبعدها أخذ منشفة كبيرة

الحجم وباشر بتجفيف الميت ، أخذ بعض العطور التي كانت
مركونة بجانب المغسل ورشها على جسد الميت .

أخذ قطعة نظيفة من القماش ليغطي عورة الميت ، وطلب
من أديب أن يجلب له الكفن من الرف ، ففتح أديب الكيس
الورقي الابيض وأخرج منه ملابس جديدة . لف غسان جسد
الميت بعدد من طبقات الكفن وعندما حرك ذراعي الميت
باتجاه صدره وغلفهما ، أوقفه أديب وطلب منه أن يكون بمفرده
مع أبيه للمرة الاخيرة .

- «بالتأكيد ، انا بحاجة الى سيجارة . خذ وقتك» .

- «شكرا لك ، لقد قمت بعمل بارع بالفعل» قالها بصوت
باهت .

اتجه غسان الى باب المغسل ووقف أديب أمام والده لا
يعرف ماذا يقول .

خرج غسان من المغسل بعد أن غسل يديه وأغلق الباب
خلفه .

حزن أديب والده بشدة وقال له : «ليتني ذهبت قبلك يا
أبي» . اغرورقت عيناه بالدموع وأكمل كلامه : «شكرا يا أبي
على كل شيء . أنت قدوتي ومثلي الأعلى في هذه الحياة لم
أفهم لماذا كنت تعاقبنا بشدة حين كنا صبيان والآن أدركت أنك
كنت تجهزني الى الحياة العسيرة ، لقد ساعدتني في كل مراحل

حياتي . أشكرك لأنك عدلت بيني وبين داوود ولم تفضله علي حتى لو كان هو الابن البكر» .

وضع رأسه على صدر أبيه ، وتنهد بأنفاس سريعة ، وضغط على جسد أبيه بقوة ، ثم رفع رأسه وقبل أديب والده من جبينه ثم نزل الى يديه وقبلهما وفتح كف أبيه اليمنى وأخرج القلم الذي اهداه إياه يوم تخرجه من جيب قميصه ووضع في يد أبيه المفتوحة .

- «أريدك ان تكتب لي من العالم الاخر كلما شعرت بالوحدة»
وأغلق يدي أبيه بقوة على القلم ونزل يقبل قدمي والده .

دق غسان الباب ودخل بخفة وكان صوته مبحوح من التدخين وقال : «دعنا ننهي تكفين والدك يا عزيزي» وغطى جسد الميت للمرة الاخيرة . بعد ان انتهيا من تكفين الميت اتجها صوب الباب الذي يؤدي الى خارج المغسل وكانت هنالك سيارة مخصصة لنقل الموتى الى المسجد لتقام صلاة الجنازة . استعملا النقالة الطبية لنقل الميت الى السيارة وشكر أديب غسان ودفع له أجرته ودخل الى السيارة وجلس بجانب السائق .

كان السائق ضعيف البنية ، تساقط شعره ، وترك التدخين لونا أصفرا مسودا على اسنانه العوجاء التي تم اهمالها عندما كان صبيا ، تكلم بعربية مكسرة فهو يتقن السلام والسؤال عن

الصحة . سلم على أديب وقال له : «البقية في حياتك» وترك
فمه مفتوحا مبتسما . لم يعرف أديب الى ماذا ينظر : اسنانه
الصفراء رأسه الاصلع فرد عليه بسرعة وأغلق الباب بجانبه .
قال السائق : «يبعد المسجد عشرين دقيقة من هنا ، يمكنك
ان ترتاح وتغلق عينيك إذ يبدو أنك تعبان» .

- «شكرا لك ، بالفعل لم أنم طوال ليلة البارحة» . ووضع
رأسه على زجاج الباب الجانبي ، واغلق عينيه ، وتجاهل رائحة
النفثالين الخارجة من ملابس السائق ، وأحس بتحريك السيارة .
أراد مناقشة الموضوع مع نفسه وقال ان أبيه قد عاش حياة متعبة
امتألت بالحروب والارهاق العصبي ورعى عائلته وكبر أطفاله
ووفر لهم بيت مسالما في بلد لا يعرف معنى هذه الكلمة .

ثم تذكر شيئا قد قراه في كتاب فلسفة مظلوم عن الموت ،
لم يتذكر الفقرة بالضبط ولكنها كانت على نحو هذا السياق :

يحاول الانسان ان يتجاهل الموت مع العلم ان الموت امامه
في كل مكان ، تعيش وتموت النباتات والحيوانات كل يوم
ويبقى الانسان معتقدا انه سوف يعيش الى الابد . وماذا سوف
يحدث إذا عاش كل انسان الى الابد؟ سوف تمتلئ الارض
بناس يأكلون ويشربون كل طاقاتها وخيراتها ، سوف تتوهن
الارض وتصاب بالمرض . فعندما يصاب الكائن الحي بالمرض
ترتفع درجة حرارته وهذا ما نسميه بالحمى ، وعندما يصاب

المرء بالحمى هنالك حلان اما أن يتغلب الجسد على الفيروس
أو يموت الجسد .

من الذي أعطى الانسان فكرة العيش الى الابد؟

من قال لك أنك سوف تبقى على هذه الارض؟

بالعكس أن الموت طريقة شريفة للخروج من الحياة ليأخذ
اطفالنا مكاننا على هذه الارض ، اليس هذا هو الخيار أفضل بأن
نمرر الشعلة الى صغارنا ونقول لهم : «لقد جاء وقتكم بالعمل»
عندها يستطيع كبار السن أن يرتاحوا ويستمتعوا بملذات الحياة .

هل تتذكر عندما كنت طفلا كيف كنت تتعجب من شيء
حولك : من انعكاس ذرات الغبار على اشعة الشمس ، اللعب
بالطين والركض في المطر . هل تتذكر عندما كنت تقطف حبات
الزيتون من أشجارها وتضعها في جيبك لأنك تحب ملمسها ،
وكلما تمر السنين وتكبر مع الحياة يزداد اهتمامك في ربح المال
وإطالة عمرك فتنسى سحر الحياة حولك ، نموت ونحن احياء
وتنطفئ النار في صدر كل أنسان ولا يبقى سوى حطب أسود .
لذاك تولد الحياة طاقتها من جديد مع اطفال جدد ينظرون الى
الحياة من وجه نظر مختلفة ويولد سحر الحياة من جديد .

أعلم جيدا إن كنت شخصا يافعا وأصببت بسرطان مزمن وقال
لك الطبيب أنك سوف تموت بعد بضعة أشهر سوف يغالبك
الحزن والبكاء وسوف يقول أهلك أنك مت صبيا وغادرت عرس

الحياة من بدايته ، ولكن تخيل أنك سوف تعيش الى الابد
وكنت في حفلة الى مدى الحياة ، التقيت بنفس الاشخاص
الاف المرات ، وأكلت نفس الطعام ، وشربت نفس الشراب ،
يبدولي أن سحر الحياة سوف يزوي من عينيك وتتمنى الموت
مع كل نفس ، وتصبح بطلا في إحدى روايات فرانز كافكا .

أنا نعيش في مجتمع تم غسل مخه إذ تعلمنا أن الموت
شيء بشع وهذا التفكير هو المرض الذي أصاب مجتمعنا منذ
قرون .

* * *

مرت الايام بسرعة بعد أن دفن أديب والده ، وانشغل بتحضير
مراسم الفاتحة ، وأستطاع ان يجد قاعة عامة من خلال الجالية
العربية في مدينته . حجز القاعة لثلاث ليالٍ وساعده بعض
الاصدقاء بتوزيع الكراسي البيض والزرق على جوانب القاعة
المستطيلة . انشغلت شذى وبان بأعداد القهوة السوداء ، وإخراج
نوى التمر وملئه بالجوز والمكسرات ليقدموها الى ضيوفهم .
قسمت القاعة الى قسمين بستارة سوداء ، قسم للرجال وقسم
للنساء . يجلس قارئ القرآن في منتصف القاعة مواجهها الرجال ،
يتجمع الرجال على شكل خلايا من اصدقاء لم يلتقوا من
فترة طويلة ، وتلوح ابتسامتهم على وجوههم عندما يرون وجها

مألوفاً في العزاء . أحاديث صغيرة بين الرجال كأصوات البلابل يتكلمون عن السياسة الخائبة ، وكرة القدم التي أصبحت القاسم المشترك بين كل الفئات أو يثرثرون عن بعض الناس . تنقطع الأحاديث على اصوات عويل النساء من خلال الستارة مما يجعل بعض الزوار يشعرون بالحزن والنخجل .

تجلس النساء على شكل دائرة حول أهل الميت وهن يرتدين الملابس التقليدية ولكن بمختلف ظلال اللون الأسود ، فيبدو منظرهن أقرب الى مشهد من فلم ابيض وأسود . جلست شذى وبان متربعتين على الأرض ، مرتدتين حجاباً أسود يغطي شعرهما ، وثمة قرآن في حضن كل منهن ، ويميل ظهرهما الى الامام وهن يقرآن المصحف بصمت .

تبكي النساء حولهن ، ويمدحن أبا أديب الذي تعودن على حضوره من خلال مشاركته فعاليات الجالية أيام العطلة الاسبوعية . كان يضحك ويمازحهن ويروي لهن مغامراته حين كان شاب يافعا . وكلما يأتي ضيف جديد ، يجلس ويبدأ بقراءة الفاتحة فيقرأ الجالسون الفاتحة معه ، تتم تحية الضيف والترحيب به ، ويتجه اليه شاب صغير العمر حاملاً صينية عليها فنجان من القهوة وقدر من الماء . بعد شراب القهوة وأكل الحلويات يبحث الضيف عن مجموعة مألوفة له ويتجه للجلوس معهم .

عندما ينتهي الضيف من إقامة الواجب ، ينادي بقراءة الفاتحة ، فيخيم الصمت على الجميع ، ويبدأون بقراءة الفاتحة ، وعندما ينتهي من القراءة ينهض مصافحا أديب ويدعوه له بطول العمر والسعادة ، يشكره أديب على مجيئه ويودعه ، وتستمر هذه العملية على مدار الساعة . جلس أديب بجانب الباب ليستقبل ويودع الضيوف . لقد مر يومان على الفاتحة ، وأصبحت القاعة مكانا مألوفا لديه ، فتعود على رائحة السجادة الرطبة والشبابيك التي يمكن من خلالها ان تسمع من يتكلم في الشارع والكرسي الأعرج وطعم القهوة المر .

لم يصدق أديب أن والده قد خرج من حياته منذ ثلاثة ايام ولم تقع السماء على راسه ، فلم يستطع ان يتخيل حياته من غير أب ، فبينما تعود على حياة بدون أخ أو أم إذ ملأت بان وشذى حياته ، لكنه لم يصدق أن يكون يتيما في يوم من الايام .

جلس بجانبه والد صديقه بان : عراقي الاصل أسمه حسن ، نحيفا أسمر اللون بذقن غير مخلوق . كلما رآه في السوق كان أديب يناديه (ابو فلاح) رغم أن لديه ابنة وحيدة ، وكان يعمل في الجامعة المحلية كمدرس للغة العربية ، وتذهب أبنته هديل الى نفس المدرسة مع بان . ينظر حسن الى هاتفه الخليوي باستمرار ، ويضعه في جيبه كلما جاء أو خرج ضيف ، فيقف مع أديب ليرحب أو يودع الضيوف .

كانا يتبادلان الحديث بين فترة وأخرى ، فتكلما عن الجو وكرة القدم وتسامرا عن العراق ، وكيف أصبح وكرا لعلبي بابا والاربعين مليون حرامي .

قال حسن : «متى تنوي العودة الى العمل؟» رفع نظره عن هاتفه بيأس من ضعف الانترنت في القاعة وانعكست شاشة الهاتف على ذقنه .

أجابه أديب بدون النظر اليه : «غدا لقد انتهت إجازتي ويجب عليّ أن أعود الى العمل» ثم أكمل «يجب عليّ زيارة بعض اللاجئين في مكان أقامتهم المؤقت» .

- «لقد ذهبت الاسبوع الماضي الى هناك ، فحلاقي موجود في نفس المنطقة . تأكد من إقفال سيارتك وأخذ أي شيء ذا قيمة» .

أجابه أديب باستغراب : «هل هنالك الكثير من اللصوص؟» - «نعم ، فبعد الخامسة مساء تصبح المنطقة غير آمنة ، يذهب الشرطة الى بيوتهم ، ويتركون المكان دون حراسة . لقد قتل الفقير الناس لذلك فأنهم يضطرون الى سرقة كل شيء من الخبز الى السيارات» رد حسن وهو يعبث بهاتفه الخليوي .

- «لقد طلبت الحكومة من مكنتبي القانوني مساعدتنا لبعض اللاجئين لتسهيل الفترة الانتقالية التي يمرون بها» .

ضحك حسن وقال : «لم أعلم ان الحكومة تهتم باللاجئين ،

فلم يهتم أحد بي حين جئت الى هذا البلد قبل عشر سنوات»
وهز يده اليمنى باستهزاء .

- «لقد تغيرت الامور عن السابق ، فلقد كنا نضيع مع بقية
الاقليات ولكن الان نحن الاغلبية وسوف نتهم بكل المشاكل
التي تحصل في المدينة» .

قاطع قارئ القران أديب وقال «صدق الله العظيم» . صمت
الجميع ، واتجهت كل الانظار الى الشيخ الذي قال : «لقد أنتهى
عزاء جواد الجنوبي ، وهو الان بيد الله سبحانه وتعالى . دعونا
نقرأ الفاتحة على روحه» . صمت الجميع في الغرفة المقسمة
حيث يمكن سماع قطرات المطر تطرق سقف القاعة ، وأصوات
الاطفال الصادرة من قسم النساء واصوات أخرى غير مفهومة
تتدفق من الشارع الموازي للقاعة .

أنتهى الشيخ وصافح أديب وقال له «البقية في حياتك يا
أبني» . شكره أديب وأشار الى أحد الصغار ليأخذ الشيخ الى
دياره ، أخذ الشاب حقيبة الشيخ وخرجا معا باتجاه موقف
السيارات . باشر بقية الشباب برفع الكراسي والطاولات الصغيرة
وخرجت بعض النساء من خلف الستارة فوضعن القهوة والتمر
في صناديق بلاستيكية ، وودع الجميع أديب وعائلته الصغيرة
وخرجوا مع اطفالهم .

كُدست كل الكراسي في غرفة صغيرة تقع بجانب القاعة ،

ووضعت الطاولات الصغيرة بجانب الكراسي . تم أغلاق كل الشبايبك المفتوحة ، ووقف أديب بجانب حسن وشرع بالبكاء . وضع يده على وجهه محاولا اخفاء دموعه ، واحتضنه حسن ومن تبقى من الرجال بأحكام ، يواسونه ويقولون له انه الان بين يدي ربه ، لكن الفراغ الذي تركه الاثاث قرع ناقوس القلق الوجودي داخل أديب .

شكر ما تبقى من الاصدقاء وأبنائهم الصبيان الذين ساعدوا على مدى الأيام الثلاثة الماضية ، وخرج من القاعة ، وأتجه الى الردهة بانتظار شذى وبان . نظر الى ساعة يده وكانت الساعة التاسعة مساء ، وفكر بالعودة الى المنزل لينام ، فلم ينم جيدا منذ سماعه بزيارة داوود لوالده ، وحلم بفراشه الناعم .

خرجت بان من خلف الستارة أولا وعيناها حمراوان من البكاء ، ثم خرجت شذى خلفها تودع إحدى صديقاتها ، وكانت عيناها حمراوان أيضا . حضنت بان والدها وقبلته على خديه ووقفت بجانبه ووضعت يدها اليمنى بيده وضغطت عليها كأنها تقول له أنها هنا بجانبه الى يوم القيامة .

وقفت شذى للحظة امامهما وهي تحمل أبريق وفناجين القهوة وقالت : «دعونا نذهب الى المنزل» . هز أديب وبان رأسيهما في نفس الوقت . اضطروا الى الوقوف عدة مرات قبل الوصول الى السيارة ، فكل من جاء في طريقهم عزاهم وودعهم ، ابتسامات

خجلى تقطعها كلمات بلا معنى ، فلقد غادر الميت ، ولم يترك خلفه سوى ذكريات تتوهج مثل قطع الجمر في ذلك المساء المعتم البارد الممطر . يبدو أن التعب قد أضنى الناس وخرج الجميع سوية للذهاب الى منازلهم .

جلسوا في السيارة وقاد أديب باتجاه منطقتهم ، وجلست شذى بجانبه وبان خلفه ، كان الجو باردا ، لذلك تراكم ضباب على زجاج السيارة الامامي . نزلت حبات المطر من سقف السيارة على الشبابيك الجانبية وكانت الريح الناتجة من حركة السيارة تدفع حبات المطر فتطير على الزجاج أشبه بدموع الحزن على الحبيب المسافر .

كان صوت الراديو خافتا والبرد قارصا والصمت مخيما على ركبها ، فقرر أديب فتح التدفئة الداخلية للسيارة ، ثم نظر الى المرآة الخلفية وقال : «بان لا تنسي أن ترتدي معطفك الشتوي غدا ، يبدو ان الشتاء قد حل باكرا» .

أجابته بان : «نعم يا والدي ، سوف أخرجه من الخزانة» وعادت ببصرها الى المباني والعمارات التي غطت أرض المدينة على مدار عقود . أضواء شاردة تتسرب من بعض النوافذ المتناثرة ، ورجعت تعد أعمدة الاضاءة من جديد .

قالت شذى : «نعم علينا اخراج الملابس الشتوية سوف أبدأ بتخزين الملابس الصيفية هذه العطلة الاسبوعية» أبتسم أديب

ولكن لم يجيبها . وضع يده على زر التحكم بالصوت وقال «لدي طلب منك يا شذى» .

استدارت شذى ونظرت اليه وقالت : «ماذا تريد؟» وكان لديها حدس عما كان يريده أديب منها .

- «اريدك أن تتركي غرفة أبي كما تركها ، هل من الممكن ألا ترتبها أو تنظيفها لفترة من الزمن؟»

أجابته شذى : «بالتأكيد لقد كان والدك بمثابة الأب لي» . وضعت يدها على يد أديب التي كانت مستقرة على مبدل سرعة السيارة . نظرت بان الى هذا المشهد وأدركت ان اباهما ما يزال في الحالة الاولى من مراحل الحزن الخمس وهي العزلة والانكار . وقفت السيارة امام المنزل ، ودخلوا الى البيت واخذ كل منهم دوره المعهود ، دخلت شذى الى المطبخ لتغسل فناجين القهوة وذهبت بان الى صالة الجلوس وبدأت تغلق الستائر وتشغل الاضاءة .

دخل أديب الى المنزل وصعد السلم متجها نحو غرفة والده ودخلها ببطء ، ثم جلس على الفراش ونظر حوله فوجد مكتبة والده التي تحمل على رفوفها أكثر من كتب ، فهناك صور قديمة والمسبحة التي لم تكن تفارق يديه . نظر الى الأرضية فوجد سجادة كانت تنتظر قبلة جبينه مثلما تعودت عليها ، سمع صعود خطوات على السلم ، فرفع رأسه ورأى بان قادمة

صوبه فدخلت وجلست بجانب أبيها ، وصرَّ الفراش عدة مرات ووضعت يديها حول أطار الفراش ، ونظرت الى والدها وقالت :

- «لماذا لم تقل لي عن اخيك داوود؟»

اجابها أديب : «عندما كنت صغيرة السن اتفقنا انا ووالدتك على ان لا نتحدث بهذا الموضوع امامك» . ارتسم الانزعاج على وجهه ولكنه أكمل «وعندما جاء جدك ليعيش معنا ، خفنا بأن يتكلم جدك عن داوود فلقد اختفى عمك بطريقة بشعة وكان من المستحيل ان يرجع» .

- «لكنني أصبحت واعية بالحياة وأستطيع ان أحفظ سرا» ردت بان بعفوية .

- «أنه ليس سرا لكنه موضوع مزعج فلقد رحلنا عن بلدنا حتى نبتعد عن هذه المواضيع ، ولم نرد ان تعرفي التاريخ القاسي لعائلتنا في العراق» .

- «هل اختفى داوود بسبب كونه شيعيا؟» قالتها مباغثة اباها .

ضحك أديب ووضع يده على راسها وقال : «تقصدين شيعيا؟» وأكمل ضحكته . هزت بان رأسها بإيجابية متأملة ان يعطيها معلومة أكثر عن عمها .

- «هل تعرفين ما معنى كلمه شيعي؟»

- «كلا هل أنا شيعية؟»

أجابها أديب : «دعيني أشرح لك معنى الكلمة ، هل ما تزال هديل صديقتك المفضلة؟»

- «نعم نحن نقضي أكثر الوقت معا» .

- «تخيلي أن تذهبي الى المدرسة ، وبينما تكونين جالسة مع هديل في استراحة الغذاء تخرجين السندويتش الذي تحضره لك والدتك كل يوم . تنظرين الى هديل ويدها فارغة وتسألها : اين غدائك فترد عليك وتقول إنها نستة في البيت» .

«ماذا سوف تفعلين؟ هل تقولين لها ان عليها إيجاد وظيفة حتى تكسب بعض النقود لتشتري شيئا تأكله من الحانوت أم تقسمين غداءك وتطعمين صديقتك؟»

فكرت بان للحظة وقالت : «طبعا سوف اقسم غدائي بالنصف» .

ضحك أديب وقال : «ربما أنت شيوعية مثل عمك» وضحكا سوية .

نادت شذى على بان وقالت لها أن عليها بالاستعداد للذهاب الى النوم واجابتها بان «نعم يا والدتي» حضنت أباهما وقبلته على حده وقالت له : «تصبح على خير يا أبي» .

قال أديب «تصبحين على خير» قالها مبتسما وودع بان بيده اليمنى .

خرجت بان من الغرفة وتركت أديب لوحده ، فتمدد على

السرير ومألت رائحة الكافور الغرفة ، ثم سمع هدير الماء في كل الأرجاء وتسرب الماء في الغرفة ببطء من كل زاوية ، وأصبح الفراش كسفينة نوح ، ووضع أديب رأسه على الوسادة وأغمض عينيه .

الغريب

نظر أديب الى المرأة الخلفية ليرى ما يضايق عينيه المحمرتين ،
إذ كانت تحكه بين فترة وأخرى وكره بسبب ذلك ، انعكاس
الشمس على أسطح السيارات وبرك الماء . فتح المخزن الصغير
في السيارة باحثا عن نظاراته الشمسية فوجدها تحت بعض
الاوراق والفواتير القديمة ، وضع النظارات ليغطي عينيه ، ف شعر
براحة فورية وعدل من جلسته وارتخت يدها على مقود السيارة .
رن هاتفه الخلوي ، وظهر أسم مارتن على الشاشة المضيئة ، نقل
أديب نظره من مراقبة الطريق الى شاشة هاتفه وقال لنفسه «يا
ترى ماذا يريد؟» تنهد وكان زفيره محبطا ، فترك الهاتف يرن أكثر
من مرة وبعد الرنة الرابعة رد أديب على المكالمة :

- «ألو مرحبا يا مارتن» وضع بعض البلسم على صوته
المجروح .

أجابه مارتن : «صباح الخير يا أديب أين أنت؟» سكت
منتظرا جوابا .

- «أنني في سيارتي باتجاه منطقة المهاجرين . سوف أصل بعد قليل» .

- «عظيم معي جون بول وفوجل انهما يريدان التحدث اليك» .
أجابه أديب بصمت مقدس .

تكلم جون : «مرحبا يا أديب أحببت ان أعزيك شخصيا لكن فوجل قال لي أنك سوف تذهب لزيارة المهاجرين مباشرة من منزلك» .

أجابه أديب : «نعم فالمنطقة أقرب الى منزلي من المكتب» .
- «يمكنك الذهاب الى البيت مباشرة . أنا أتذكر عندما فقدت والدتي قبل خمس سنين وأعلم كم كانت تلك الايام عصبية» رد مارتن بسرعة .

- «يرحمها الله كانت امرأة وإنسانه نبيلة كانت تعامل ابنتي كأنها حفيدة لها» .

- «كانت تحب بان بشدة وتتغزل بجمالها العربي» قالها مارتن بنبرات دافئة .

- «مازالت بان تتذكر العطلة التي قضتها معكم أيام أعياد الميلاد» غطى الحنان على صوته .

- «أه لقد ذكرتني بأيام زمان ، على اي حال يا أديب سوف ندعك تركز على السواقة ونتكلم مرة أخرى غدا ، مع السلامة» .

أجابهم أديب «مع السلامة» وأنهى المكالمة بدفع زر في هاتفه .

خرج أديب من الطريق السريع ، وأتجه الى المخرج الذي يؤدي الى الحي الذي يعيش فيه المهاجرون . أنتبه الى تغير تضاريس الارض ولون المكان فكانت الارض منبسطة تملؤها بيوت قديمة عمرها قد يبلغ خمسين عاما . اطفال يلعبون في الشارع بمختلف الالعاب فوضع بعضهم حجر فوق حجر على الارض كأنه مرمى للعبة كرة قدم ، وثمة كرة بيضاء تغطيها بقع سود يتراكم خلفها عدة اطفال ، وبنات صغيرات يدفعن عربة للأطفال ، ليس فيها طفل بل دمي في أشكال مختلفة .

تداعب الرياح الاشجار المهملة فتندفع الاغصان والاوراق بمختلف الاتجاهات ، وتمتزج ظلال اللون الأخضر مع بعضها ، فالعشب أخضر فاتح يلمع تحت أشعة الشمس ، ولون الاشجار يتغير مع حركة الغيوم التي تغطي الشمس في آخر أيام الخريف . أكياس القمامة الصفرة مرمية على أرصفة الشوارع منتظرة حاملي القمامة ، تحوم حولها القطط بشك فضولي ، يركض بعض الاطفال خلف قطة محاولين أن يجروها من ذيلها فتستغرب القطة من هذا التصرف ، فهي لا تعرف أن هذه طريقه ترحيب الاطفال بالقطط في الوطن الام .

انتبه أديب الى الاعمدة الكهربائية المتناثرة بين بيت وآخر ،

والأسلاك الكهربائية التي تمتد من عمود لأخر مثل شرايين تمتد بشكل عشوائي ، وطيور بنية اللون تحوم من شجرة الى أخرى باحثة عن طعام أو ملجأ . توقف أديب أمام مجموعة من البيوت متماثلة التصميم والشكل فبيت يشبه الاخر كأن صانعهما أخذ قالب بيت من لعبة المونوبولي وبنى عشرات البيوت منه .

كانت كل البيوت كالحبة اللون فلم تغسل جدرانها الخارجية منذ فترة طويلة ، ويبدو ان المطر قد أنزل بعض الاوساخ من السطح الى الجدران . شباكان وحيدان يطلان على الشارع المحمي بأسلاك حديدية لتحمي سكانها من السرقة التي أصبحت تجارة هذه المحلة . أبواب حمر تواجه الشارع عليها أرقام ذهبية بعضها مغلق وبعضها مفتوح على مصراعيه .

يتجمع بعض الرجال أمام بيوتهم يدخنون ويراقبون أطفالهم يلعبون في الشارع . انتبهوا الى سيارة أديب الحديثة عندما توقفت عند بضعه أمتار منهم . تتشارك كل البيوت بحديقة فسيحة وحيدة يحيطها سور قصير من الاسلاك الحديدية المربوطة بأعمدة قصيرة متباعدة بالتساوي . تتواجد بعض أشجار الليمون في جهات مختلفة من الحديقة ، ويبدو أن العشب قد قُصَّ بغير انتظام فهو طويل بجانب السور وقصير بجانب البيت .

ثمة مصطبة خشبية في منتصف الحديقة بجوار احدى أشجار الليمون ، جلس عليها ثلاثة أشخاص . اثنان منهم يلعبان

لعبة الشطرنج والثالث جالس يتفرج منتظرا الفائز منهما . كان الرجل الثالث شابا ، فشعره أسود كثيف وحاجباه مقوسان من كثرة التركيز على رقعة الشطرنج وذراعاها عاريتان يبرز منهما شعر عشوائي . يضع كوعيه على المصطبة مما يجعله يستعرض عضلات ذراعيه وتلتقي يداه تحت ذقنه .

خرج أديب من السيارة ، وتأكد أن كل الأشياء الثمينة تم وضعها في مكانها وأغلق الباب بالمفتاح وتحرك باتجاه البيوت ذات الأبواب الحمر . أحسّت الطيور بوقوع قدميه ، فطارت مجموعة منها الى منطقة أخرى لتطعم أطفالها فتحرك باتجاه السور ليحتمي من الشمس في ظلال الاشجار العالية .

وضع أصبعه على السياج ، وتحرك من ثغرة الى أخرى ، فتذكر كيف كان يحب أن يضرب السياج بالعصى وهو يركض حين كان صبيا ، فتتحرك العصي بيده من عمود لآخر محدثة صوت عاليا متقطعا . وصل الى الطريق الخاص الذي يمتد من المنزل الى الشارع ، فدخل ونظر الى الحديقة الواسعة ورأى ثلاثة أشخاص جالسين على المصطبة ، وكلما اقترب من البيوت ارتفع صوت المجموعة .

بحث عن البيت رقم 8 فوجد الباب مغلقا والستائر مسدلة لتغطي البيت من الخارج ، دقَّ على الباب وانتظر لفترة وجيزة ، ثم قاطعه رجل واقف أمام بيته يدخن فقال لأديب : «أنهم خارج

البيت ولكن الرجل المسؤول يجلس على المصطبة» .
ضحك أديب وقال له «شكرا لك» أعجب بدهاء الشخص
الذي تكلم معه بالعربية من أول نظرة .

تحرك باتجاه الحديقة ، وتفادى الطين قدر استطاعته ، فانتبه
الرجال له وتوقفوا عن الحديث ونظروا اليه باستغراب فلم يتعودوا
على رؤية شخص منهم مرتديا ملابس أنيقة ويسوق سيارة
حديثه .

وصل أديب إليهم وقال : «السلام عليكم» .
أجابه أحد كبار السن الذي كان يلعب الشطرنج وقال :
«وعليكم السلام ماذا تريد يا عزيزي؟»

انتبه أديب الى وجه الرجل الذي كان يحاوره إذ كانت عيناه
مغروستين في محجرهما كأنهما نفق مظلم يوصلك الى روحه ،
وثمة تجاعيد حول عينيه يمكنك قياس عمره منها ، شعره أبيض
كالقطن وهناك غطاء على رأسه يمنحه نوعا من هالة مقدسة ،
كان يرتدي دشداشة بنية اللون يمكنك رؤية ملابسه الداخلية
من خلالها .

- «احببت أن أتكلم مع الشخص الذي يعيش في بيت رقم
8 ، لقد أرسلني مكثبي للمساعدة» أبتسم أديب منتظرا جوابا
من أحدهم .

أستخدم الرجل يديه ليؤشر الى الشخص الثالث الذي كان

ينتظر دوره فاستدار الشخص وقال : «نعم أنا أعيش مع عائلتي في هذا البيت» .

- «مرحبا أنا أديب . لقد كلفت الحكومة مكتب المحاماة الذي اعمل به لمساعدتك في الانتماء والتأقلم في هذه المدينة» ومد يديه ليصافحه .

وقف الشخص وصافح أديب وقال : «أهلا وسهلا ، اسمي باسم لقد كنتُ بانتظارك منذ الاسبوع الماضي» .

- «أعذرني فلقد توفى والدي الاسبوع الماضي ولم أستطع القدوم» . جلس أديب بجوار باسم على المصطبة ، وتوقف الرجلان عن اللعب وقال أحدهم «رحمه الله يا أبنّي ، لقد تعودنا على اسم الموت» .

- «لا يوجد شخص عراقي مرتاح في هذه الدنيا ، وبيدولي أن الكل قد أصيب بمرض أو لعنة» رد باسم بشؤم .

- «دعك من هذه الأسطوانة المشروخة ودعنا نبدأ بالعمل» قالها أديب مبتسما .

- «عظيم هيا ، لنذهب الى البيت وسوف أعد لك شرابا ساخنا ونباشر بالكلام» رد باسم بعجلة وكأنه قد استرد عافيته بقدوم نجدة الحكومة .

- «ممتاز ، لقد بدأت عظامي تؤلمني من هذا البرد القارس ، لا أعلم كيف تجلسون على هذه المصطبة وتلعبون» ووضع أديب

يديه في جيوب معطفه ليدفئهما .

- «يبدوا أنك نسيت برد العراق يا أديب» وضحك متجها الى بيته ذي الباب الأحمر . أخرج باسم مفتاحا من جيبه ، وفتح الباب فتسربت رائحة البخور من الباب تبحت عن ملجأ جديد يدفئها . دخل أديب وباسم وأغلقا الباب خلفهما . وجد أديب نفسه داخل صالة الجلوس مقابل أريكة قديمة امتلأت بملابس مرمية عليها وهنالك سجادة حمراء بين الأريكة والتلفاز عليها دفاية نفطية رمادية اللون .

انتبه الى رائحة الرطوبة الممزوجة برائحة البول الخارجة من الحمام الصغير الذي كان يقع بين صالة الجلوس وغرفة النوم ، وهناك طاولة صغيرة بجانب الأريكة تحمل ريموت التلفاز ومطفأة السجائر . فتح باسم الستائر لتدخل أشعة الشمس للمنزل فوجد رطوبة متكاثفة على النوافذ من الداخل . أعذر باسم من الفوضى وقال لأديب : «عذرا ، يوسف يرمي ملابسه في كل مكان» وحاول أن يرتب المكان .

- «هل تحب شرب الشاي أم القهوة؟» وأتجه الى المطبخ الذي كان يقع في إحدى زوايا صالة الجلوس .

- «قهوة تركية لو سمحت» .

- «بالتأكيد أعطني عشر دقائق» وفتح باسم الدولاب الذي كان تحت الطباخ باحثا عن دلة القهوة . جلس أديب على

الاربيكة ووضع حقيبة كتفه في حضنه وقال «منذ متى وأنت تعيش هنا؟» وأنتبه الى الصورة المعلقة فوق التلفاز .

- «لقد أسكنونا هنا منذ ثلاثة أسابيع ، ولقد ملَّ يوسف من مشاهدة التلفاز» فتح باسم حنفية الماء وملاً الدلة بالماء البارد .
لاحظ أديب أن في الصورة طفلان يقفان أمام باسم وزوجته .
كان الولد في سن المراهقة وبنت صبية . أما زوجته فكانت ترتدي قميصاً أبيض قصير الأكمام وتنورة زرقاء تصل الى ركبتها وخلفهما جامعة الموصل .

سأل أديب «وأين الاطفال الان؟» وقف محاذياً الصورة .

- «لقد ذهب يوسف الى المكتبة ليقراً بعض الكتب ليحسن لغته ، أنه يذهب مشياً للمكتبة كل يوم» . وضع الدلة على الطباخ وتقدم نحو أديب وقال له «تفضل أجلس» مؤشراً بذراعيه الى الاربيكة .

جلس أديب وقال : «وأين زوجتك وطفلتك؟»

تفادى باسم الجواب وقال : «لقد بدأ الماء بالغليان» ثم وقف وتحرك باتجاه المطبخ .

أنتبه أديب لحساسية الموقف ولم يضغط على باسم فقال له : «دعني أخذ يوسف معي وسوف أسجله في نفس مدرسة أبنيتي ، بان سوف تعتني به» .

حرَّك باسم رأسه بإيجاب متجنباً البكاء فقام أديب وقال له :

«دعني أساعدك بتحضير القهوة» .

قال باسم : «شكرا لك يا أخي» .

* * *

دق جرس المدرسة معلنا وقت الغذاء اليومي الذي ينتظره الطلبة بشغف حتى يلتقوا بأصدقائهم ويتكلمون متى شاءوا . يخرج معظم الطلبة الى الساحة المدرسية التي تقع في منتصف المدرسة وتوجد حولها مقاعد خشبية يجلسون عليها لتناول الطعام . ثمة هدفان لكرة القدم وعمود معلق عليه حلقة بدون شبكة لكرة السلة . تراكض الاولاد ليحجزوا فريق لعبتهم المفضلة فمعظم البنات يجلسن على المقاعد الخشبية يتناولن طعامهن ويراقبن الاولاد يلعبون في منتصف الساحة .

جلست بان وبقوارها هديل ووضعتا حقائبهن بجانبهن ، وأخرجت بان منديلا سماوي اللون ووضعته على المقعد قبل ان تجلس عليه وقاية من الرطوبة العالقة في المقعد . أخرجت هديل غذاءها ووضعتة أمامها ثم أخرجت كتابا عليه صورة للأبراج ووضعتة بجانب غذائها وقالت لبان «الحمد لله لقد توقف المطر» .

- «لقد جفت المقاعد في الوقت الصحيح» ثم أخرجت بان غذاءها وبدأت تأكل .

- «أحب ان اخفف عن همومك فلقد استعرت كتابا من مكتبة أمي عن الابراج فهي تحب هذه المواضيع» .

أجابتها بان بعد ان بلعت اللقمة «روعة إقراءي برجى يا هديل» .

وضعت هديل السندويش بجانبها وفتحت الكتاب وقالت :
«أنت مولودة في 10 نيسان صحيح؟»

- «نعم أنني من برج الحمل» .

ضحكت هديل وقالت «وهذا ما يفسر عنك كل شيء» .

- «هيا إقراءي برجى» .

قرأت هديل الكتاب فقالت «أن طبيعة المرأة من برج الحمل هي طبيعة انفرادية مستقلة ولهذا تستطيع الاعتماد على نفسها في مختلف الاعمال اليومية» .

- «هذا كلام سليم» ومضغت طعامها .

اكملت هديل «أن الفتاة من برج الحمل تكون دائما عاطفية عنيدة ومجازفة» توقفت عن القراءة وقالت «ولهذا ترتدين الحجاب في كل مكان يا عنيدة» ثم أكملت قراءة الكتاب .

«أنها انسانة متحمسة ومتفهمة ونظرتها ثاقبة» رفعت هديل نظرها من الكتاب وقالت «يا ألهي أنك امرأة خارقة» .

قهقهتها وأنتبه بعض المارة إليهما وقالت بان «كلا ، لا أصدق

ما أسمع أعطني الكتاب رجاء» فمدت يدها وأخذت الكتاب
وحاولت البحث عن الكلمات التي قرأتها هديل .

- «اللجنة أن كل شيء قراءته صحيح . هنالك الكثير من
المعلومات» وأكملت القراءة «هنالك بعض المستحيلات مع
نساء الحمل أولهما أن من المستحيل أن تتنازل عن شيء تؤمن
به وثانيا من المستحيل أن تكون مترددة وبطيئة وأخيرا مستحيل
أن تفكر قبل أن تتخذ قرارا» .

قاطعتها هديل وهي تضحك وقالت : «يبدو أن كاتب الكتاب
كان جيرانك يا بان» .

قالت بان : «دعيني أكمل القراءة» ، وبدأت تقرأ بصوت عال :
«من مشاهير برج الحمل هم مارلون براندو» .

- «ستيلا» وضعت هديل يدها الى الاعلى لتقليد مشهد
مشهور من فلم لبرانودو .

- «عمر الشريف» أحمرت حدود بان من الخجل .

- «دكتور شيفاجو» اجابتها هديل متفاخرة بمعرفتها لكل
افلام عمر الشريف .

ثم أكملت بان «وتشارلي شابلن» .

وضعت هديل اصبعين على شفيتها العليا مقلدة شارب
شابلن النحيف .

- «أي من الابراج متوافق مع برج الحمل؟» اكملت هديل متسائلة .

- «نعم هنالك فقرة على هذا الموضوع» ثم أكملت القراءة «إن أفضل برج يتناسق مع المرأة من برج الحمل هو برج القوس فمعه تستطيع أن تبني حياة مثيرة تسافر معه الى أماكن بعيدة ، وتحس بأن حياتها عبارة عن مغامرة من مشاهد سينمائية مشهورة ويمكنها أن تبني جسرا بينهما فيزداد التفاهم بينهما» .

قالت هديل «ومن أين سوف أجد لك رجلا من برج القوس؟»
- «وماذا عن اخيك؟» قالتها بان بعجلة .

- «من هيثم؟ أنه ثور من برج الثور» ضحكت وهي تمضغ طعامها .

- «تعالى لنقرأ برجك يا هديل لم يبق على فرصة الغذاء الى القليل من الوقت» ، وقلبت بان أوراق الكتاب وتوقفت أمام برج الجوزاء .

- «هل تعرفين عيد ميلادي؟»

أجابتها بان بسرعة : «طبعا فأنا وجدت برج الجوزاء بسرعة» .
«هيا إقراءى بسرعة قبل أن يدق الجرس» قالتها هديل وهي تنتهي من سندويشها .

باشرت بان بالقراءة : «أن الفتاة الجوزاء لديها طبيعة طموحة

فهي ذكية ومناقشة ماهرة ودائما متأملة وصريحة في كلامها» .
- «كل هذا الكلام صحيح فأنا مناقشة بارعة» قالتها هديل
بفخر .

- «دعيني أكمل الكلام يا ذكية» .

وأكملت «ان المرأة من برج الجوزاء لديها أوجه وشخصيات
عديدة فلذلك هي إنسانة قلقة وقليلة الصبر وتتغير طبيعتها من
ربة بيت الى صديقه عصبية ثم الى أم مسؤولة عن سعادة أولادها
أو حبيبة لا تستطيع أن تستغني عن حبيبها» .

قالت بان : «يا إلهي الان أفهمك حقا» .

أجابتها هديل : «نعم ، نعم أكملني القراءة رجاء فانا لا أستطيع
الانتظار» .

قالت بان : «هنالك العديد من المستحيلات توجد في كل
امرأة جوزاء فهي من المستحيل أن تقضي يومها بشيء واحد
فتتحرك من ترتيب الملابس الى المطبخ ثم تخرج لحفلة
بالمساء ، وثانيا من المستحيل الا تكون غير فضولية فهي تمل
بسرعة وتبحث عن ثثرة عن الناس» .

ثم أكملت «ان الرجل في حياته مع المرأة الجوزاء عليه ان
يلعب عدة ادوار كمثل ، أن قلة صبرها تؤدي الى أن تتغير
مشاعرها بسرعة فما أن يعجبها عشيق اليوم إلا ويثير حنقها غدا
فتكون متأججة العواطف بينما تستحق هي المساندة والشفقة

في ازدواجيتها» .

قالت بان : «هل تعرفين من المشاهير من برج الجوزاء؟»

قالت هديل : «كلا ، قولي لي أنت» .

أجابتها بان : «مارلين مونرو» .

- «الله عليك» وصفقت هديل .

أكملت بان : «جون كيندي» وصفرت بشفتيها .

ثم قالت بان «وجورج بوش» .

سكتت هديل لفترة وجيزة وضحكتا سويا ثم قالت : «فعلا

شر البلية ما يضحك» .

ثم أغلقت الكتاب وقالت : «لقد تغيرت صورتك عندي يا

هديل الان أفهم لماذا تتحدثين عن عشرة مواضيع في آن واحد» .

هطل المطر ببطء ، وغطت الغيوم الشمس الشتائية ، وترك

الاولاد ساحة اللعب ، ولم يبق إلا اثنان منهم لم يهتما لقطرات

المطر . وقفت بان وهديل ووضعتا ما تبقى من طعام في

حقيبتيهما ، وتحركتا باتجاه الصف ، ودق الجرس فركض بعض

الطلبة الى الحمام لقضاء حاجتهم قبل أن يبدأ التدريس من

جديد .

سألت هديل : «هل أنهيت الواجب البيتي للغة الانجليزية

البارحة؟»

ردت بان : «نعم فانت تعلمين كيف ينقلب مزاج السيدة سوزن وتصبح جادة بعض الاحيان ، لابد أنها من برج الجوزاء» .
قبل ان يصلا الى الصف ، انتبهتا الى قدوم مساعدة المديرية السيدة كرستين وهي تلوح بيديها لهما ، فتوقفنا أمام الصف وقالت السيدة كرستين لبان : «أن المديرية تريد أن تتحدث معك بموضوع معين» .

ودعت هديل بان ، ودخلت الى الصف ، وجلست في مكانها ، وأدخلت السيدة كرستين رأسها الى الصف وقالت الى المعلمة ان بان سوف ترجع بعد عشر دقائق .

مشت بان خلف المساعدة التي كانت تمشي بخطوات قصيرة سريعة وهي تحرك رقبتها الى الامام والى الخلف كأنها حمامة تبحث عن بذرة في الارض .

تذكرت بان إن كانت قد أخطأت بحق أحد او لم تكمل واجباتها المدرسية ، لكنها لم تتذكر اي شيء قد يساعدها على تفسير سبب لقاءها مع المديرية . تحدثت مع المديرية السنة السابقة حين شدَّ أحد الطلبة حجابها ، فأبلغت عنه . وصلت مساعدة المديرية الى باب المكتب اولا وفتحته لبان منتظرة إياها وأدخلت رأسها الى المكتب وقالت «لقد وجدتھا» .

وصلت بان وشكرت السيدة كرستين على اخلاقها وانتظارها لها فدخلت الى المكتب فوجدت مديرة المدرسة جالسة خلف

مكتبها وأباها أديب جالسا على الكرسي المقابل لها ، وجلس بجانبه غلام نحيف البنية ، تكاد جوزة عنقه أن تخرج من مكانها وشعره طويل أسود دهني لامع ، ويبدو انه كان في منتصف عمر المراهقة ، يرتدي بطالا من الجينز الأزرق الغامق مع قميص أبيض طويل الكمين ، وتجلس ساعة رقمية على معصم يده اليسرى .

أبتسم أديب عندما رأى بان وقال لها : «مرحبا يا بان لقد أحببت أن أتكلم معك أمام المديرية في موضوع مهم . لقد طلبت الحكومة من مكنتي أن نساعد يوسف ووالده ، فلقد مروا بظروف عسيرة ، ولقد جلبته الى هنا كي تساعدني» .

أمرتها المديرية بان تجلس على الكرسي المجاور لأديب ويوسف ، فوضعت حقيبتها على الارض وجلست بجانبهما ، وقالت المديرية وهي تنظر الى بان : «أحبُّ أن أعرفك على طالب جديد اسمه يوسف سوف يبدأ الدراسة في نفس الصف معك . أريدك ان تساعدني على التأقلم مع بقية الطلاب» .

استدارت بان الى يوسف وقالت : «مرحبا» .

هز يوسف رأسه بإيجاب وقال : «مرحبا» .

- «طبعاً سوف نذهب إلى الصفوف معا وسوف أساعده قدر

المستطاع» .

أجابتها المديرية : «عظيم هل تحب أن تبدأ اليوم يا يوسف؟»

- «نعم أحب أن أبدا حالا» رد يوسف وهو ينظر باتجاه بان .
قالت بان : «ممتاز دعني آخذك معي الى صف اللغة
الانجليزية» .

خرج يوسف وبان من غرفة المديرية واتجها الى صف السيدة
سوزن ، وانعكست صورتها على الزجاج الذي يفصل الممر عن
الخارج ، ورأى يوسف أهدافا لكرة القدم موجودة في منتصف
الساحة وقال : «هل هنالك أولاد يلعبون كرة القدم؟»

أجابته بان : «نعم يمكنك اللعب في فترة الغداء كل يوم» .
ثم أكملت : «يجب أن تحصل على بطاقة مدرسية حتى
تستطيع أن تستخدم مكتبة المدرسة ، سوف أساعدك على
الحصول عليها بعد درس الانجليزي» .

قال يوسف : «شكر جزيلا» .

- «هل تجيد اللغة الانجليزية؟» وتوقفت أمام الصف .
أجابها يوسف : «نعم فلقد تعلمتها من خلال مشاهدة
الافلام» .

- «جيد» ودقت على الباب وفتحته ببطء وكانت هنالك طالبة
تقرأ فقرة من كتاب .

قالت بان : «اعذريني يا سيدة سوزن أحب أن أعرفك على
طالب جديد» .

توقفت الطالبة عن القراءة ودخلت بان ويوسف الى الصف .
قالت السيدة سوزن : «هل تحب ان تعرف عن نفسك؟»
سألته باللغة الانجليزية محاولة معرفة قدرته امام الصف ، أجابها
يوسف بلباقة وقال : «اسمي يوسف باسم وهذا أول يوم لي في
هذه المدرسة» باللغة الانجليزية .

قالت السيدة سوزن : «ممتاز سوف تتأقلم بسرعة» ، وابتسمت
ثم أشارت لهما بالجلوس . تحركت هديل بسرعة وأشرت لبان
ويوسف بالجلوس بجانبها ، واکملت الطالبة قراءتها . بعد فترة
وجيزة دق جرس المدرسة ، وقالت السيدة سوزن : «لا تنسوا أن
تكتبوا قصة قصيرة عن حياتكم ، سوف نقرأها يوم الجمعة» .

خرج الطلاب بسرعة متجهين الى الدرس التالي . توقفت
هديل وبان ومعهما يوسف خارج الصف وقالت بان : «دعنا
نذهب الى المكتبة حتى نساعدك في إخراج بطاقة مدرسية» .
قالت هديل : «فكرة عظيمة» .

دخلوا الى المكتبة ووقفوا أمام الحاسوب وقالت بان :
«يمكنك أن تستخدم الحاسوب فكل ما عليك أن تملأ نموذج
طلب البطاقة» .

جلس يوسف امام الحاسوب واملأ النموذج ، طبع الاسم الاول
والاسم العائلي ثم يوم ميلاده وأخذ صورته باستخدام الكاميرا .
كانت هديل وبان خلفه يحدقان بشاشة الحاسوب منتظرين

أن تنتهي الطابعة من تجهيز البطاقة ، وابتسمت هديل وقالت
ليوسف : «هل تعرف ما هو برجك؟»
أجابها يوسف «كلا ، ما هو؟» قالها مستغربا .
قالت هديل : «أنك من برج القوس» ، وابتسمت باتجاه بان
ابتسامة خبيثة .

جنونستان

هبّت ریح شمالية مثيرة كل شيء في طريقها استعداد لعاصفة تتكون فوق المدينة . كان اليوم اول أيام الشتاء ، وأخرج الناس معاطفهم وقبعاتهم تأهباً للبرد القارص . تعب عصفور من التحليق في السماء ، انهكته الريح فقرّر أن يلتجأ لسارية العلم التي تقع وسط المدرسة ، رفرّف العلم في اتجاه الريح مرتطماً بالسارية بين فترة وأخرى محدثاً رنة تعود عليها الطلاب وهم يلعبون تحتها .

تنثال أشعة الشمس على العلم فينعكس ظل رفيع على الارض ، تتطاير ذرات الماء مع الريح بمختلف الاتجاهات تاركة لمحة عن القادم من الامطار . وقف العصفور على السارية ، وتخيل أنه نسر شرس في حرب ، والريح عدوه اللدود الذي أفنى قبيلته منذ قرون ، تخيل ان العلم يقع فوق قلعته يرفرف في وجه الريح . وقف العصفور بشموخ باحثاً عن طيور أخرى ليحدثها كيف أنتصر على العدو العنيد .

بعد فترة وجيزة سرى الجوع في جسد العصفور ، فانقطع حبل أفكاره وسلسلة تخيلاته ، وبحث عن طعام فنظر الى الاسفل ، ووجد مجموعة من الطلبة جالسين على مقاعد خشبية يأكلون طعامهم ، فطار العصفور ورفعته الريح بشكل عشوائي وهبط بطريقة حلزونية ، حط بجوار أحد المقاعد منتظرا نصيبه ، باحثا عن دودة ارض أو بقايا خبزة ليملاً بها بطنه كي يرجع الى المعركة فقلعته بدون ملك ، وما الملك دون قلعة إلا انسان بملابس مهرج وإكليل من الورد وأوراق الزيتون .

انتبهت هديل الى وجود العصفور بجوار طولتهم ، فقطعت جزءا من رغيفها ورمته الى الملك ، فرأى العصفور القطعة وهي تتدحرج على الارض بسبب الريح وقال لنفسه «تبا للريح» وقفز عليها وأمسك بها بمنقاره ، ثم لمح أقدام بعض الطلاب تأتي صوبه ، فطار ورجع الى قلعته ، ووقف كالنسر يأكل لقمته ، ويتطلع الى الاسفل محدقا بالطلبة .

قالت هديل وهي تنظر الى العصفور : «هل أنهيت الواجب المنزلي للغة الانجليزية؟»

أجابتها بان : «نعم لقد أنهيته مساء الامس» ووضعت ما تبقى من غذائها في صندوقها .

- «هل رأيت يوسف اليوم؟» سألتها هديل ورمت بقايا الطعام للعصفور .

- «أنه في مختبر الاحياء وقال انه سوف يأتي الى هنا بعد أن ينتهي من درس التشريح» .

- «أني أراه الان ، انه قادم مع أحد الطلاب هل تعرفينه؟»
استدارت بان ونظرت باتجاه يوسف ثم قالت : «أنه مع كريستوفر» .

نزل العصفور الى الارض وألتهم ما رمت هديل له ، ولكنه طار مرة أخرى حين سمع وقع خطوات يوسف وكريستوفر .
جلس يوسف بجوار هديل مقابل بان وجلس كريستوفر بجانب بان وكانوا يدرشون . قال كريستوفر : «لا توجد جنة أو نار يا يوسف أنك تضيع وقتك بالصلاة» .

- «إنك غلطان ، فانت لم تر ما حدث لعائلي وبلدي ، ولم تتذوق المر في حياتك» .

قاطعتهما هديل وقالت : «عماذا تتكلمان؟» ونظرت الى يوسف .

- «لقد كنا في مختبر الاحياء نشرح ضفدعا ، وعندما فتحت صدره ترحمت عليه ، فضحك كريستوفر وبدأنا بالنقاش عن وجود رب او خالق» .

أجابهما كريستوفر : «أن الموت الذي ينتشر في بلادك يا يوسف ليس بسبب غضب إله بل هو بسبب عطش الانسان للسلطة والحكم» .

- «إنك على خطأ وسوف تذهب الى النار بعد موتك» .
أجابه كريستوفر: «وكيف تعرف ماذا سوف يحدث لك بعد الموت؟ وكيف تعرف ان هنالك جنة أو نار؟»

بقيت بان صامتة ولم تتدخل بهذا النقاش ، وعندما حاولت هديل أن تقول شيئاً داست على قدمها لتنبهها بأن لا تتدخل فهي دخلت في نفس الجدل مع بعض زميلاتها ولكنها لم تجد اي فائدة منه . وجدت أن كل من يعيش في بلد مسالم وغني يوفر لسكانه كل المستلزمات الإنسانية ولا يتعرض الانسان فيه الى عله أو اضطهاد سوف ينسى ربه ولا يتذكره إلا عندما يفقد المرء شخصا قريبا أو غاليا أو كان في مأزق يشكل خطرا على حياته .

أخرج يوسف علبة الثقاب من جيبه ، وأشعل عود الكبريت وقال لكريستوفر: «ضع يدك فوق عود الكبريت» ونظر الى صديقه .

- «أنت مجنون» ووضع يده فوق نار عود الكبريت الذي احترق بسرعة بينما كان لهيبه يتمايل مع رياح المدينة .

- «هل تحس بالنار تحت يدك؟ أضرب هذا بمئة أو ألف مرة وعندما سوف تعرف ماذا ينتظرك بعد موتك» .

أعجبت هديل بهذه اللعبة وقالت : «دعني أجربها يا يوسف» ووضعت يدها بجوار كريستوفر ولكن النار قد ماتت وتركت

خلفها هيكلًا أسودًا محترقًا لعود ثقاب .

ضحك كريستوفر وقال : «أنت مجنون يا صديقي ولكنك لاعب كرة قدم ماهر!»

- «شكرًا لك» ووضع علبة الثقاب في جيبيه .

نظرت بان إلى كريستوفر وقالت : «لماذا يستغيث الإنسان ويدعوه عندما يغرق؟ ألا تظن أن الإنسان مبرمج ليبحث عن إله ليعبده ويصلي له عند الحاجة؟»

أعجبت هديل ويوسف بملاحظة بان ، لكن كريستوفر أجابها بسرعة : «ربما يجب عليك أن تتعلمي السباحة يا بان» ، ودق جرس المدرسة معلنا نهاية وقت الغذاء ، فوقف كريستوفر وقال «سوف أراك لاحقًا يا يوسف» .

قالت هديل : «اللعنة سوف توبخني السيدة سوزن لأنني لم أنجز واجبي المنزلي» ، ووقفت مع بان ويوسف واتجهوا إلى صف اللغة الانجليزية .

- «هل أنت مستعد يا يوسف؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟» سألته بان .

- «لا لقد أنهيته مساء أمس وتمرنت مع والدي بالقراءة» ووضع حقيبته فوق كتفه .

- «عظيم ، هديل سوف أساعدك بعد انتهاء الدرس» .

دخلوا الى الصف ، ووجدوا السيدة سوزن جالسة على مقعدها في مقدمة الصف . كانت في الثلاثين من عمرها مرتدية ثوبا طويلا أسودا يغطي معظم جسدها . ترتدي نظارات طبية أطارها عريض وردي اللون يتناسق مع لون حمرة شفيتها تربطها بسلسلة ذهبية حول رقبتها وتخفي القلادة خلف ثوبها . التفتت صوب الطلاب الداخلين وهي ترحب بهم وتحييمم بابتسامة سطحية . انتظرت حتى أمتلأ الصف بالطلاب ، فأغلقت الباب ووقفت امام مقعدها باتجاههم .

وقالت : «دعونا نبدأ الدرس رجاء . لقد طلبت منكم أن تكتبوا قصة قصيرة عن حياتكم باللغة الانجليزية ، هل أكمل الجميع الواجب؟»

رفعت هديل وطالبة أخرى ايديهما ، فاستفسرت المعلمة منهما عن سبب عدم إتمام الواجب ، فقالت هديل أنها كانت مشغولة مع أخيها هيثم وسوف تكمل الواجب بعد انتهاء الدرس في المكتبة . أشارت لها المعلمة بالجلوس وقالت لها : «تعالى الى صالة المعلمين بعد انتهاء المدرسة ، سوف أقرأه خلال العطلة الاسبوعية» .

شكرتها هديل وقالت لها : «أنها لن تخيب ظنها» نظرت المعلمة الى بان وقالت لها : «تأكدي أنها سوف تنهي واجبها اليوم يا بان» .

- «نعم يا سيدة سوزن سوف أساعدها بعد انتهاء الدرس» .
قالت السيدة سوزن : «من يحب أن يبدأ بالقراءة؟» ونظرت
الى الصف .

رفع يوسف وبعض الطلبة أيديهم ليجذبوا انتباه معلمتهم ،
فنظرت الى يوسف وقالت : «دعنا نبدأ بيوسف ، تعال الى مقدمة
الصف» .

وقف يوسف وأخرج دفتره المدرسي وتفادى الارتطام بمقاعد
الطلاب الجالسين وتقدم الى مقدمة الصف ووقف بجوار
المعلمة . نظرت اليه وقالت : «هيا يا يوسف» واتجهت الى
مقعدها ، تنحجح يوسف ونظرا الى الاوراق بيده وقرأ :

«ولدت قبل خمسة عشر عام ، في بلد اسمه العراق ، ولدت
وكان بلدي يخوض حربا وغادرته وكان في حرب أخرى . كان
العراق منبع الحضارة في العالم ، وأصبح الان مقبرة للإنسان ،
يملك العراق ثاني أكبر احتياط للبتروول مما يجعله من أغنى دول
العالم ولكن المواطن العراقي يعيش في فقر أزلي فلا يحصل
العراقي على أكثر من 6 ساعات من الكهرباء في اليوم الواحد .
لقد دمرت الحروب البنية التحتية لمعظم مدن العراق وعادت
الامراض المنقرضة مرة أخرى مثل الطاعون والجذري» .

رفعت السيدة سوزن نظرها من أوراقها وأهتمت بما يقرأه
يوسف فأكمل : «لكن أسوأ الامراض التي أصابت بلدي كان

مرض (ط) الذي حول شعبا عاديا الى أشباح من غير روح أو ضمير . انه مرض يسبب التهابا حادا في الدماغ مما يؤدي الى الوفاة . ان الاعراض المتكررة لهذا المرض هي الشعور بالضييق ، والصداع والحمى التي تتزايد لتتحول الى الم حاد ، ثم يبدأ المريض بإصدار حركات عنيفة وتهيج لا أراذي وينتاب المريض في النهاية نوبات من الجنون والحمول والاصابة بالاكثاب» .

«في البداية أصاب المرض بعض الاشخاص ، ولكن لم تتم معالجتهم بالشكل الصحيح ، فانتشرت العدوى بين العوائل ثم ما بين الاقارب وبين الأحياء والمحلات . شارع بعد شارع تحول السكان من أناس طبيين الى أشباح هائجة تهاجم بعضها بعضا ، فامتألت الشوارع بالجثث الممزقة ، وانتبه بعض الناس السليمين الى ما يحدث ، وحاولوا ايقاف انتشار المرض بأي طريقة أو وسيلة ولكن الوقت قد مضى وسقطت مدن كاملة بهذا المرض اللعين» .

«كانت مدينتي تقع في شمال العراق ، وكنا بعيدين عن العدوى والداء ، فقرر والدي البقاء في مدينتنا هذه التي كانت بعيدة عما يجري . عمل والدي في الجامعة الحكومية ، بينما كانت أمي خياطة ماهرة يعرفها الجميع في المنطقة ، وكنا أنا وأختي نذهب الى المدرسة ، فكنت أذهب الى المدرسة المتوسطة وهي تذهب الى المدرسة الابتدائية التي كانت تقع بجوار مدرستي» .

«في يوم من الايام سرت الاشاعات في مدرستي أنهم وجدوا اول مريض في مدينتي ، واقترح بعض الاطباء عزل المريض ، ولكن أغلبية الناس تجاهلوا الامر وقالوا إنها حالة خاصة ولن يحدث لنا ما حدث في باقي المدن» .

«كان ذلك مصيبة كبرى ، وأتمنى أن احاسب ، في يوم من الأيام ، الشخص الذي أتخذ هذا القرار فلقد دفعت الثمن غاليا من لحمي ودمي» .

استمع الطلاب بشغف لقصة يوسف ، فلقد كان القاءه للقصة ملفتا وحتى السيدة سوزن كانت مصغية لكلام يوسف وهي تداعب سلسلتها الذهبية وظهرت قلاذتها الذهبية على شكل صليب صغير الحجم يلمع مع ثوبها الناعم . اما بان وهديل فلقد صفعتهما القصة على نحو مؤثر ، كان يوسف يتكلم عن بلد بعيد عنهما ولكنه قريب من قلوبهما مثل حبيب خائن يرتدي قناع الحب والخيانة مع حبيبتة في نفس الوقت .

وأكمل يوسف القصة : «تكاملت الاعراض مع المريض ونهكت الحمى عقله وهاجم كل من وقف في وجهه وأنتشر الوباء في مدينتي التي عشت فيها طوال عمري ، مدينتي التي قضيت فيها طفولتي أنا ورفاقي من مختلف الاعمار والاديان ، مدينتي التي كانت معلماتها يعتنون بي ، هذبوني ودرسوني لأصبح شخصا ناجحا ، مدينتي التي وقفت كل قلعة أمام

حروب امتدت على مدار قرون . مدينتي التي كانت كائنا حيا يتنفس هواء بلدي ويأكل ويشرب من خيراته ، ولكن كل هذا تبخر بسرعة ، فالمرض انتشر بسرعة السرطان من مريض لآخر ، وركعت مدينتي على ركبتيها تدعي وتصلي أن تساعد بقية المدن ، فلقد فات الاوان وأصبح بلدي عبارة عن مريض في غيبوبة يتمدد في فراشه يتنفس بمساعدة الاجهزة الطبية . وصف الاطباء هذه المرحلة من المرض بمرحلة الجنون المستمر وسموها «جنونستان» فامتألت مدينتي بقبور من غير أسماء وأسماء بدون قبور» .

«في يوم صيفي حار ، هاجم المرضى مدرسة أختي بينما كان الطلاب يجلسون في الساحة ، فتراكض الاطفال في كل مكان ، فمنهم من اختبأ تحت المقاعد أو الحمام ولكن أختي لم تكن محظوظة أو شجاعة فبقت متسمره في الساحة فأحاطوا بها من كل اتجاه . نادت ولكنها لم تسمع الا صدى صوتها يترطم بين جدران صامته فمسكوها وقتلوها في مكانها ، ولم يبق من أختي سوى سلسلة فضية كانت ترتديها يوميا لتحميها من كل مكروه» .

توقف يوسف عن القراءة ، وغرقت عيناه بالدموع ، واراد ان يستمر لكن صراخ والدته مازال يرن في أذنه ، فاخذ لحظة ليتمكن من السيطرة على نفسه ، ولم يرفع نظره عن الورقة التي كانت ترتعش مع حركة جسده ثم وجد شجاعة كافية لينهي

القراءة فقال : «وبعد ذلك لم تستطع أمي ان تعيش مع أبي في نفس البيت ، فبدأت تلومه على كل شيء يحدث داخل وخارج البيت وقضت معظم أيامها بجانب قبر أختي» .

«لقد سقطت مدينتي لهذا المرض اللعين الذي انتشر في كل أنحاء بلادي ، فقرر أبي مغادرة المكان وترك كل شيء خلفنا ، قالت والدتي ان مستقبلي في خارج البلاد ولكنها لن تترك أختي لوحدها فهي تخاف من الليل ، لذلك كانت أمي تجلس بجانب قبرها وتشعل شمعة كل ليلة لها ، فتذوب دموعها على خدها كما يذوب الشمع ويتصلب على قبر لحمي ودمي : اختي» .

«وجدنا حافلة ركاب تكاد أن تترك المدينة فقررنا أنا وأبي الخروج من هذا الجحيم ، أخفينا كل شيء يدل على أصلنا أو خالقنا ، فلقد كانت رحلة طويلة ومتعبة ، ولكن الان ليس الوقت المناسب لقصتها ولكن أريد ان أحذركم من هذا المرض اللعين الذي ينتشر بسرعة وعليكم بالحدز فربما سوف تقع مدينتكم فريسة له ايضا» .

«أشعر بأنني غريب هنا ، فأمي وأختي مازالا في بلدي ، وكلما اغلق عيني ويغمرني النوم ، أحلم أنني أتجول في محلتي القديمة راكبا دراجتي وأرى أختي تلعب مع اصدقائها ، ارى جدتي تعلم أمي الخياطة ، ولذلك أحب ان اقرأ لكم قصيدة لشاعري المفضل بدر شاكر السياب وعنوانها لأني غريب» .

وتكلم يوسف بالعربية مما شد انتباه الطلبة له وقال :

لأني غريب

لأن العراق الحبيب

بعيد وأني هنا في اشتياق

إليه إليها أنادي : عراق

فيرجع لي من ندائي نحيب

تفجر عنه الصدى

أحسّ بأني عبرت المدى

إلى عالم من ردى لا يجيب

ندائي

وإما هزرت الغصون

فما يتساقط غير الردى

حجار

حجار وما من ثمار

وحتى العيون

حجار وحتى الهواء الرطيب

حجار ينديه بعض الدم

حجار ندائي وصخر فمي

ورجلاني ريح تجوب القفار

انتهى يوسف من القراءة وصدق الطلاب وقالت السيدة سوزن : «قصة بديعة ولديك أحساس عالي يا يوسف» .

رد عليها وقال : «شكرا لك» واتجه صوب مقعده . دق جرس المدرسة ووضع الطلاب دفاترهم وأقلامهم في حقائبهم وقالت المعلمة سوزن بسرعة : «سوف نكمل القراءة يوم الاثنين ، لا تنسوا التدريب على القراءة خلال العطلة الاسبوعية» .

نظرت باتجاه يوسف وقالت : «هل من الممكن أن تترجم القصيدة لي؟»

قال يوسف : «بالتأكيد سوف أعدها لك في العطلة الاسبوعية» .

خرج يوسف مع بان وهديل ووقفوا خارج الصف وقالت هديل : «دعنا نذهب الى المكتبة فليس لدينا أي درس لساعة كاملة» .
قالت بان : «لنذهب الان» .

وأتجه الثلاثة الى المكتبة وأنهال المطر بغزارة معلنا البداية الرسمية لموسم الشتاء .

* * *

دق جرس باب المكتبة حين دخل يوسف هديل وبان وهم يجففون أنفسهم من المطر . كانت امينة المكتبة واقفه تضحك عليهم وقالت : «لا يتذكر الطلبة المكتبة الا عند هطول المطر» .

أجابتها هديل : «مرحبا سيده كاميرون . لقد جئنا الى هنا لإنهاء واجبي المدرسي ، وجاء يوسف وبان ليساعداني» .
قالت السيدة كاميرون : «أذن اتجهوا الى طاولة فارغة ، وسوف أعد لكم مشروبا ساخنا من الكاكاو» .

رد يوسف وبان في أن واحد : «شكرا جزيلا لك» .

كانت المكتبة فارغة ، فمن غير المعتاد أن يتواجد فيها الطلاب يوم الجمعة ، ورغم وجود طاولات شاغرة في كل مكان ، لكن هديل أصرت على الصعود للطابق الثاني حتى يستطيعون الكلام بدون إزعاج ، وأن يروا من يأتي ويخرج من المكتبة ببساطة . اختارت هديل طاولة في زاوية بعيدة ، وبدأوا بإخراج دفاترهم ، اخرجت بان كتابها المفضل فلسفة مظلوم مع دفاترها ووضعت على الطاولة مما جذب نظر يوسف اليه فلم ير هذا الكتاب من قبل .

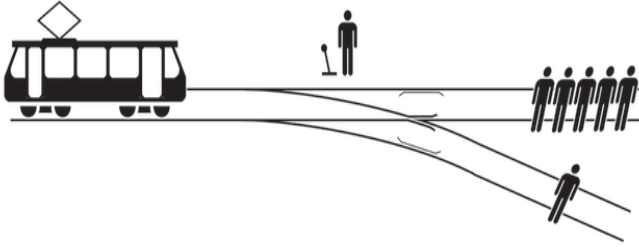
ساعدت بان هديل بواجبها المنزلي وجلس يوسف يقلب أوراق دفتريه ثم قال : «هل من الممكن أن ارى كتابك؟»
- «بالطبع ، كن حريصا عليه ، أنه كتاب والدي» ودفعت الكتاب باتجاه .

أخذ يوسف الكتاب وقلب أوراقه ثم قلب الكتاب على وجهه وقرأ نبذة عن حياة الكاتب ، توقفت بان للحظة وقالت : «هل تعرف الكاتب؟»

- «كلا لكن منظره يبدو مألوفا» .

- «ان هذا الكتاب يدرس في جامعات العراق» ورجعت
تساعد هديل .

عاد يوسف يقلب صفحات الكتاب ووقف امام صفحة جذبته
فيها رسمة توضيحية كانت على هذا الشكل وكان عنوان التجربة
«مشكلة القطار» .



بدأ يوسف بالقراءة إذ يقول مظلوم «أن هذه التجربة في علم
النفوس تم طرحها من قبل فيليبى فوت في عام 1967 ولقد تمت
مناقشتها في كتب عديدة ، ولكني أحب ان أطرحها على القارئ
العراقي ، تخيل ان هنالك قطارا قادما على سكة حديد تتفرع
الى فرعين ، في الفرع الاول هنالك خمسة أشخاص مربوطين
على سكة الحديد ولا يستطيعون الحركة والقطار قادم للاصطدام
بهم . أنت القارئ واقف بجوار رافعة تتحرك يمينا ويسارا . فاذا
حركت الرافعة الى اليسار سوف يتحرك القطار الى الفرع الثاني
من سكة الحديد التي يُربط عليها شخص واحد لا يستطيع
الحركة فماذا سوف تفعل؟»

«إذا قررت ألا تفعل شيئاً فلسوف يصطدم القطار بخمسة أشخاص ، أما إذا حركت الرافعة فتقتل شخصاً واحداً ، الخيار خيارك» .

رفع يوسف رأسه وسأل هديل وبان : «أنظروا الى هذه المعضلة من سينجو؟ الخمسة ام الشخص الواحد؟»
قالت هديل وبان في آن واحد : «الخمسة» .

أجاب يوسف : «لقد اخترت نفس الجواب سوف أقرأ لكم ماذا يقول الفيلسوف» . باشر يوسف بالقراءة : «ان معظم القراء اختاروا ان يحركوا الرافعة فينقذوا خمسة اشخاص ويُقتل شخص واحد فقط ، وهو تصرفٌ يدل على ان مذهب المنفعة موجود داخل كل إنسان ، أن المنفعة تقول ان الاختيار الشرعي والمقبول به بأن تنقذ الخمسة أفضل من ألا تفعل شيئاً وتنقذ شخصاً واحداً» .

«إذا نظرنا الى المعضلة من وجهة نظر المبادئ الأخلاقية ، وكانت لديك السيطرة على الموقف من خلال تحريك الرافعة أم لا ، فلا بد أن تشارك في انقاذ الاشخاص ، وإذا قررت عدم المشاركة فسوف تجد نفسك في موقف غير أخلاقي فنفس الخمسة أغلى من روح واحدة» .

«فهل تغيّر رأيك إذا ما عرفت مثلاً أن الخمسة كانوا مرضى بمرض السرطان وسوف يموتون خلال وقت قصير بينما الشخص

الوحيد هو غلام سليم؟»

«الآن سوف اطرح معضلة أخرى عليكم : تخيل أنك جراح عظيم لديك خبرة في نقل وزراعة الاعضاء البشرية واليوم لديك خمسة مرضى ، اثنان منهم بحاجة الى رئة واحدة لكل منهما ، والاثنان الاخران يحتاجان الى كلية واحدة لكل منهما ، والمريض الخامس يحتاج الى قلب . كل مريض منهم يحتاج الى عضو جسدي وإلا سوف يموت ، من أين سوف تأتي بالأعضاء؟»

نظرت هديل الى بان وقالت : «بان تحب بالتبرع بكل شيء أنها إنسانة كريمة» ، وضحك الجميع في آن واحد .

رد يوسف عليها وقال : «إذا ذهبوا اليوم الى بغداد فلسوف يجدون الأعضاء معروضة في كل الشوارع وسوف يعيش الجميع» .

أجابته هديل : «أكمل القراءة يا يوسف لقد ازداد فضولي بهذه المعضلة» .

قال يوسف : «بالطبع» وقرأ من جديد : «وقبل أن ينتهي اليوم ، يحضر شخص سليم إلى غرفة الانتظار جاء من أجل فحصة السنوي ، وهو في صحة جيدة ولديه فصيلة الدم المناسبة . والآن لدينا المتبرع وكل ما عليك يا جراح بأن تأخذ ما تحتاج من أعضاء لتساعد مرضاك الخمسة . إذا سألته وطلبت منه بلطف بالتبرع وقال لك : «كلا» فماذا سوف تفعل؟

«كل من طرحت عليه هذا السؤال ، قال لي أنه ليس من المسموح لك أن تجري العملية ، ولكن لماذا يُسمح للشخص الواقف بجانب الرافعة ، بأن يحرك القطار عن سكة الخمسة فيقتل شخصا واحدا ولكن ليس من المسموح للجراح بأن يقتل شخصا واحدا لينقذ خمسة أشخاص» .

«في كلتا الحالتين هنالك شخص واحد سوف يموت وخمسة سوف يعيشون ، سوف أترك هذا النقاش للمحامين وعلماء النفس» .

أنتهى يوسف من القراءة وقال : «لقد دخت من الفلسفة» .
قالت بان : «أفهمك! أنه كتاب والدي المفضل فهو يحب المعضلات والأحجيات» .

- «كم تبقى من الوقت حتى تنتهيا من واجب هديل؟» اغلق يوسف الكتاب ودفعه باتجاه بان .
أجابته هديل : «لن نتمكن من إكماله اليوم . سوف أذهب الى بيت بان غدا» .

قالت بان : «تعالى لنذهب الى المخبز قبل بداية الدراسة» .
- «تتكلمان عن أي مخبز؟» سأل يوسف بفضول .
- «هنالك مخبز قريب من بيتي ، لماذا لا تأتي الى منزلي ونذهب كلنا الى هناك؟»

- «أعطني عنوان بيتك وسوف آتي اليكم ، انتظروني رجاء» .
كتبت بان عنوان البيت على ورقة بيضاء من أحد دفاترها ،
وأعطتها الى يوسف . وضع يوسف الورقة داخل جيب سرواله
ووضع حقيبته على كتفه وقال : «لقد توقف المطر اراكم لاحقا» .
قالت هديل : «مع السلامة لا تتأخر غدا فأني اجوع عندما
أشم رائحة المخبز» .

قالت بان : «نراك غدا يا يوسف» .

خرج يوسف من المكتبة متفاديا برك الماء التي تعكس أضواء
المكتبة والسماء العكرة بغيوم رمادية ، يتردد صدى صوت الرعد
بين الغيوم ، وكل ما يستطيع يوسف أن يراه هو ومضة برق بين
حين وآخر . ركض الى محطة حافلة الركاب ، واحتمى تحت
شجرة ، فرأى عصفورا يأكل بذرات بجانب الشجرة وراقبه وقال :
«سبحان الله ، هذا الطير موجود في كل مكان» .

نظر العصفور باتجاه يوسف وهدق فيه لفترة قصيرة ثم رجع
يأكل البذور ، تمنع يوسف بالعصفور وقال لنفسه : «كلانا
كائنات يحاولان تفادي الخطر بالاختباء تحت شجرة ، انها حياة
مضحكة» .

لاهث

وجد أديب نفسه نائما على ظهره ، مقيد اليدين والقدمين ،
وشعر برطوبة سائل لزج حول جسده ، اراد ان يشمه لكنه لم يميز
الرائحة . حرك ذراعه لكن السلاسل الحديدية حول يديه كانت
ترن مع كل محاولة عقيمة . لم يفهم ماذا يحدث ، فبحث عن
وجه مألوف له ، ولكن كل ما كان يستطيع ان يراه هو سقفا أسود
اللون مكتوب عليه كلمات بالصيغ الابيض ، فحص الكلمات
لكنه لم يميز الحروف او يفك شفرة اللغة .

حرّك رأسه في كل الاتجاهات فلم ير غير جدران سود
تنظر اليه باستهزاء ، صرخ لكن صوته خذله ، لسانه وحنجرته
موجودان لكنهما أصيبا بالعقم الصوتي . رفع رأسه ليرى ماذا
يوقف ساقيه عن الحركة فوجد انهما قيدتا بسلاسل حديدية ،
فأستسلم بسرعة وتوقف عن الحركة . الشيء الوحيد الذي يكرهه
في هذه الغرفة هو امتداد الرطوبة ما بين اصابع قدميه وحول
شعره .

اعتاد على الهدوء المحيط به ، فلا أحد يسأل عنه أو يطلب شيئاً منه ، وكلما أغلق عينيه وتذكر شيئاً ذا قيمة من حياته قاطعته الكلمات البيض . هاجمه الاعياء حول ذراعيه فكان الثقل متمركزا على صدره ، فتنفس بسرعة ، وأمتد شرخ في فمه وأمتص كل الهواء في الغرفة ، وكلما أحس بأنه سوف يغرق في السائل اللزج أزداد تعلقه بالحياة حتى لو كان سجين الارض الرطبة .

فراغ ، فراغ ، فراغ .

هذا كان كل ما يسمعه حين جرب الصراخ ، امتزج النعاس بالرطوبة فتشاءب وأغلق عينيه ولكن الكلمات البيض نحتت نفسها داخل جفنيه . تتباين الكلمات امامه مرة أخرى ، ومع كل ومضة تتبخر ، فليس ثمة مهرب من هذه الغرفة ، لكن التعب أرهقه فنام مع كل هذا الضجيج البصري .

قطرات من السائل اللزج تتساقط من السقف ، قطرة فقطرة تجد لنفسها موقعا على جسده وما حوله . أستشعر أديب بمادة لرجة ندية على وجهه تنزل من جبينه الى خده . ازدادت قطرات المطر شدة وذابت الكلمات المكتوبة فاندمج الصبغ بمادة الاسمنت المائع وتساقطت قطرات ثقيلة .

أحس بأنه سوف يغرق حيا ، فصرخ لكنه تذكر صوته الأبكم الذي لا يُسمع في هذه الغرفة ، حرك رأسه يمينا ويسارا ليتفادى

دخول القطرات الى عينيه ، لكن الاسمنت ارتفع ببطء وغطى أديب من مختلف الاتجاهات فلم يبق من أطرافه ما يُرى إلا رأسه . أستسلم لمصيره ، وتذكر الكلمات التي رآها على سقف الغرفة ولكن دون جدوى ، تذكر والديه وشذى وبان ، وركز على وجوههم المرسومة بفرشة زيتية في مخيلته لكن الوجوه والاصوات تداخلت مع بعضها كاندماج الالوان على فرشة رسام ، وأصبحت صورة عائلته مشوشة في عقله .

لم يبق من أديب سوى فمه الذي يستعمله للتنفس ، فلقد جف الاسمنت على كل أنحاء جسده ، مما جعله يشعر بضغط شديد على رثتيه ، فحرك ذراعيه وكتفيه لكنهما أصبحا جزءا من صنم ، أخذ آخر أنفاسه ، وحرك فمه ببطء وقال : « كل من دخل هذه الغرفة عليه أن يفارق الامل » . قالها مرة بعد أخرى حتى الرمق الاخير .

استنشق شهيقا عميقا ، ونهض بسرعة من فراشه ، فوجد نفسه يسبح في بركة من عرق ، وضع يده على فمه وتحسس شعره المبلل . نظر الى يساره فوجد شذى نائمة بجواره ، جرب تذكر الكابوس الذي استولى على جسده ، لكنه ذاب كسراب في صحراء ذاكرته . نظر الى الساعة الرقمية بجوار فراشه وقرر الرجوع الى النوم .

استيقظ أديب ووجد نفسه نائما بجوار زوجته وكل منهما

معطيا ظهره للأخر فكانا كسمكتين غادرتهما الحياة ، فالعيون
والفمان مفتوحان ويشتركان بفراش يشبه علبه السردين . لمس
بيده مكان نومه المعتاد فوجد أن عرق الكابوس قد جف ، وقرر
الزحف إلى مكانه ، بحث عن هاتفه الخلوي لكنه لم يجده
بجواره . تجرأت أشعة الشمس ودخلت إلى غرفتهما كأنها أوتارا
موسيقية تلعب على اصابع بيتهما ، فداعبت عينيه وأجبرته على
النهوض ، وعد بان ليلة الامس أنهما سوف يعدان الفطور معا
كما كانت تحضره مع جدّها .

اتجه الى الحمام ليقظي حاجته ويستحم بماء ساخن ليمحو
ما تركه الكابوس على جسده ، ومضت كلمات بيض بسرعة
أمام عينيه عندما دخل الى الحمام وأشغل زر الضوء ، لكنها
اضمحلت مع بقايا الكابوس . خرج من الحمام ونظر الى نفسه
بالمرأة التي أحلتها بخار الماء الساخن ، انتبه الى زيادة وزنه
وتحذب كرشه الذي غطى على قضيبه وخصيتيه . جرب تذكر
آخر مرة كان قضيبه منتصبا لكن ذاكرته لم تحمل له جواب
مرضيا فلم يتذكر آخر مرة مارس الجنس مع زوجته وبدا له أن
اجهزته قد رأتها «ميدوسا» فحولتها الى صخر منحوت .

قرر أن ألا يحلق ذقنه اليوم فهو يحب ان يكسر الروتين
خلال العطلة الأسبوعية ، وارتنى ملابس بسيطة ؛ بنطلونا من
الجينز وقميصا طويل الاكمام ، وفتح مروحة الهواء ليخرج البخار
للخارج ، فكلما نسى فعل ذلك ، كانت زوجته توبخه وتقول

له أن الحمام يبقى رطبا ، وإن كان يحبها فعليه ان يشغلها بعد استخدام الماء الساخن .

خرج من غرفة النوم بهدوء ، واتجه صوب غرفة والده ، وأنتبه الى صوت التلفاز القادم من صالة الجلوس ، فعلم أن بان بانتظاره . كان باب غرفة والده مغلقا ، وتذكر كيف كان يحب أن يرى الضوء الخافت من تحت الباب حين يغادر البيت مبكرا فيسمع والده يتوضأ ويصلي . وقف امام الباب ولم يدرك سبب وجوده هناك ، أهى بداية مراسيم جديدة أضافها الى قائمة طويلة من الاعمال الروتينية التي ينجزها كل يوم دون تفكير؟

اصبحت غرفة والده مقاما مقدسا يزوره كل يوم ، فيرى صورا وكتبا قديمة وحتى سجادة الصلاة مازالت في مكانها . يدخل أديب الغرفة كل يوم باحثا عن شيء قديم أو جديد ليوقد شمعة داخل كهف ذكرياته ليتذكر أهله فتطفو ابتسامة على وجهه حين ينجح في مهمته اليومية .

تطلع الى مكتبة والده التي كانت عامرة بكتب عربية وأجنبية ، كتب متنوعة ودواوين قصائد لمختلف الشعراء وبجانب الكتب هنالك مجموعة من الاشرطة الصوتية التي انقرضت مع مطلع القرن الواحد والعشرين . كانت الاشرطة لمغنين عراقيين قدامى تظهر صورهم على وجه الكاسيتات التي ذبل لونها مع مرور العقود .

وجد أديب غلافا فارغا لشريط صوتي صغير الحجم فعلم أنه لجهاز تسجيل الصوت الذي يستخدمونه في مكتب العمل عندما يلقن رسالة لمساعدته الخاصة إيزابيل . شردت عيناه بسرعة باحثة عن جهاز التسجيل فلم يجده على رفوف المكتبة ، أخذ خطوة الى الخلف ، وركز نظره على المكتبة كلها لكنه لم يجده ، انخطف تركيزه للحظة عندما سمع خطوات على الدرج قادمة باتجاهه .

نظر بسرعة إلى فراش والده ، ووجد طاولة خشبية بجانب السرير مزينة بزخارف وأصداف اشتراها والده من محل بيع قطع أثرية في أحد المصايف الذي قضوا فيه العطلة الصيفية السنة الماضية . كان الدرج الاول مغلقا ، فاتجه الى الثاني لكنه لم يفتح بأكمله ، استطاع أن يرى الجهاز جاثما مع سماعات للأذن فحرك الدرج الى اليمين واليسار حتى سهل أمر فتحه .

أغلق الدرج الثاني وفتحه لمرة ثانية ، فانفتح بسهولة ، أخذ الجهاز بيده ووضعه على سرير والده ، فتح مكان الشريط ووجد شريطا صغيرا وعليه لصقة مكتوب عليها «آب 1986» .

تدفق الدم بسرعة الى رأسه ، وأحس بالدوران وفقدان الوعي ، فجلس على الفراش ووضع يده على صدره ، وأحس بحفرة تذبذب في جسده لكن دقائق على الباب أخرجته مما كان فيه وقالت بان : «هل أنت على ما يرام يا أبي؟»

- «نعم يا أبتني لقد دخت قليل فجلست هنا» ووضع يده على الجهاز ليخفيه عنها .

- «لقد سأمت الانتظار فقررت إيقاظك من النوم فوجدت ضوء غرفة جدي مشتعلا . هل تحب تحضير الفطور سوية؟»

- «بالطبع سوف ألحقك فوراً ، أعطني لحظة من فضلك» .

- «خذ وقتك ، سوف أعد الشاي» .

خرجت بان من الغرفة ، وتركت الباب مفتوحاً خلفها ، فتنفس أديب الصعداء ، وأخرج الشريط ووضعها في غلافة الموجود على المكتبة ووضعها في جيب سرواله . أرجع الجهاز الى الدرج وأغلقه بأحكام ثم أطفأ ضوء الغرفة وأغلق الباب خلفه . نزل الى الطابق الاول وهو يفكر بما قد وجد ، فيده تلعب بالشريط داخل سرواله فيتساءل «عما يحتوي هذا الشريط؟ ولماذا كان والده يستمع اليه؟ والى اين قد وصل؟ ومتى سوف يحين الوقت كي يسمعه؟» . قطع صفيير ابريق الماء الساخن حبل أفكاره ، ووجد بان تنتظره وهي تتفرج على فيلم سينمائي بالأسود والأبيض .

- «ما هذا الفيلم؟» وجلس بجانبها .

- «لقد وجدت فيلم «لاهث» على احدى القنوات ، هل

شاهدته من قبل؟»

نظر اليها أديب وهو يبتسم : «نعم أنه من أشهر افلام جو

دارد» .

سألته بان : «جو دارد؟»

- «انه مخرج سينمائي فرنسي وهو رائد موجة الافلام
السينمائية الفرنسية في الستينيات» .

- «الله يا والدي أنك تعرف الكثير عن الافلام» ووضعت بان
رأسها على صدره .

قال أديب : «لقد قضيت فترة مراهقتي داخل المنزل أشاهد
الافلام وأطلع الكتب بسبب خجلي من وجهي» اخرج يده من
سرواله وأحتضن ابنته .

- «وجهك لماذا؟»

أجاب أديب «عندما كنت صبيا مراهقا كان وجهي مليئا
بحب الشباب فنصحني الطبيب بتجنب الشمس الحارة» .

قالت بان وهي تنظر الى وجه ابوها : «لا أستطيع أن أتصورك
وانت شاب مراهق» .

ضحك أديب ولم يجيبها ، وللحظة تمدد الصمت في الغرفة
وهما يتابعان الفيلم .

كان المشهد على النحو التالي : جلس الكاتب مسيو جار
فليسكو يجري مقابلة مع بعض الصحفيين خارج المطار مرتديا
قبعة ملونة ونظارات شمسية ، جلس بجانب مائدة يدخن الغليون
ويتناول النبيذ الاحمر ويجيب على أسئلة الصحفيين .

جلست فتاة حسناء امامه . كانت ذات شعر قصير تضع

نظارات شمسية عريضة وترتدي ثوبا مقلما بلون فاتح ، وكانت تصغي لجميع الاسئلة وتكتب ردود الكاتب ، يتطاير شعرها القصير مع حركة الريح ، وتعكس نظارتها صورة مشوهة للكاتب ينظر اليها . انتظرت دورها ثم سألته سؤالاً واحداً :

- «ما هو هدفك الوحيد في الحياة؟»

نظر اليها مسيو فليسكو ونزع نظارته ثم قال : «أن أصبح انسانا خالداً ثم أموت» اجابها بسهولة عجيبة كأنما سمع هذا السؤال من قبل . وضعت قلمها في فمها وضغطت على شفيتها السفلى وهي تصغي ثم ابتسمت وهي محنية الرأس تكتب الجواب .

تنبه أديب لمرور الوقت وقال لبان : «دعينا نعد الفطور» .

قالت بان : «سوف أسجل الفيلم حتى اتفرج عليه لاحقاً» .

اتجهت الى المطبخ لكن صوت جرس الباب دق مرتين ، فنظر أديب الى بان وقال : «يا ترى من يزورنا في هذا الوقت؟»

- «لا أدري» واتجهت الى الباب مع والدها .

فتح أديب الباب بحرص وتطلع لمن كان هناك فوقف يوسف مبتسماً وقال : «صباح الخير يا عمي» .

- «صباح الخير ماذا تفعل هنا؟» وفتح الباب على مصراعيه .

- «لقد وعدتني بان بالذهاب الى المخبز» ونظر اليها معجبا

بشعرها فلم يراها من غير حجاب من قبل .

نظر أديب ويوسف الى بان للحظة ووضعت يداها على شعرها

وقالت : «يا إلهي لقد نسيت ، أعذرني تعال تفضل» ، دخل يوسف واغلق أديب الباب خلفه ، اتجهوا الى المطبخ وقالت بان : «عذرا سوف أغير ملابسي» واتجهت الى غرفتها .
نظر يوسف الى التلفاز وشاهد الفيلم الأسود والأبيض يتحرك بصوت خافت .

قال أديب : «تعال نجلس في المطبخ ، سوف أحضر شيئا بسيطا ، هل تحب ان تشرب الشاي؟»

اجابه يوسف بسرعة : «نعم دعني أساعدك» اتجه نحو احدى الخزانات ، وحاول ان يحزر اين توضع الاقداح .

راه أديب ضائعا فأشر اليه بالمعلقة الى إحداها ، ورجع يعد إفطاره . ساد الهدوء المطبخ فلا يُسمع إلا ادوات الطبخ وهي تصطك مع بعضها . جلس يوسف على مائدة الطعام الصغيرة التي كانت مركونة في إحدى زوايا المطبخ ، وتطلع الى التلفاز ليفهم السياق من غير أن يسمع الحوار .

اتجه أديب حاملا ابريق الماء الساخن باتجاه يوسف وملاً قدحه بالماء فتدمى الماء بلون الشاي وقال يوسف : «شكرا يا عمي» اجابه أديب بابتسامة ، ورجع الى الطباخ ليقلب البيض . انتهى أديب من تحضير الفطور وضع كل شيء على المائدة وجلس بجواره وقال له : «تعال نأكل سووية ، بان مثل أمها سوف تستغرق وقتا طويلا حتى تستعد» . ضحك يوسف وأحب أن

والد بان يزيح الصمت بينهما .

- «كيف حال والدك؟ وكيف حال المدرسة؟» ومضغ طعامه .
- «أبي على ما يرام ، فما يزال يبحث عن عمل يشغل وقت فراغه ، أما المدرسة فأنها أسهل مما تصورت» .

- «ذلك بسبب صعوبة الدراسة في العراق ، فكل العراقيين يعرفون الجهاز الهضمي لدودة الارض . أخبرني ماذا سوف تفعلون اليوم؟»

أجابه يوسف وقدح الشاي بيده : «سوف نساعد هديل في تحضير واجبها المدرسي ، ولكن أحب زيارة المنخبز أولاً» .

قال أديب وفمه مليء بالطعام : «نعم ، نعم ، انه منخبز رائع وهو يذكرني بمنخبز بغداد ، ان مالكة يهودي الاصل» . رجع السكون يخيم مرة أخرى حول مائدة الطعام ، ونظر الرجلان الى شاشة التلفاز وهما يراقبان الفيلم بانتباه .

دارت العجلات في رأس يوسف كعقارب الساعة باحثه عن موضوع ليتكلم عنه فهو لا يعرف هوايات أديب ثم تذكر الكتاب الذي طالعه البارحة .

قال يوسف : «لقد قرأت كتابا من كتب بان مساء الامس وقالت لي أنه كتابك المفضل» .

رفع أديب رأسه من صحن الطعام وقال : «عن أي كتاب تتكلم؟»

أجابه يوسف «كتاب الفلسفة ، لقد دخنا ونحن نقرأه البارحة»
قالها مبتسما لأنه وجد أن أديب قد أكل الطعم ، وذاب الصمت
بينهما مرة أخرى :

- «نعم انه من كتبي المفضلة فهو يداعب ويتحدى عقولنا» .

- «بالضبط . لماذا لا يقرأ الناس كتبا مثل ذلك؟»

- «ليس لكل الناس استعداد لقراءة الفلسفة ، فمعظم الناس
مشغولون بالأعمال اليومية من الذهاب الى العمل والمدرسة
وإيجاد لقمة العيش وتوفير مكان آمن لهم» .

أكمل أديب : «هل تعرف أبراهام ماسلو؟» وشرب شيئا من
الشاي .

قال يوسف : «كلا» .

وضع أديب أدوات الاكل على صحنه ونظر باحثا عن شيء ،
ثم قام متجها الى حقيبة عمله ، ورجع بقلم وورقة . حرك صحن
الطعام الى الجانب ، والتقط قطعا من البيض المتناثر ووضعها
على صحنه ومسح يديه المدهنتين بسروال بجامته ووضع الورقة
أمامه :

- «كان أبراهام ماسلو طبيبا نفسيا وهو مشهور لاختراعه لهرم

الحاجات» .

ثم رسم مثلثا كبيرا على شكل هرم وكتب داخل كل درجة
الاحتياجات التي يطلبها كل أنسان .



قال أديب : «أن كل انسان يبدأ عند الدرجة الاولى وهي البحث عن طعام ، وماء ثم الجنس والتوازن . بعد اشباع كل هذه الاحتياجات يصعد الانسان السُّلم ويبحث عن الصحة والعمل وأمن الممتلكات وبعدها يصعد السلم ويزداد اهتمامه بالحاجات الاجتماعية مثل الصداقة والعلاقات الاسرية . بعد إرضاء الوالدين وتقوية الصداقات يبحث الانسان عن تقدير الذات ، الانجازات واحترام الآخر والبحث عن الاحترام من الاخرين . وبعد أن يقف الانسان على كل هذه الدرجات يصبح جاهزا لدخول الدرجة الاخيرة وهي الحاجة لتحقيق الذات فيبدأ بالابتكار وحل المشاكل وتقبل الحقائق» .

«معظم الناس في الشرق الاوسط يقفون عند الدرجة الثالثة أو الرابعة ، فبعد الانتهاء من الدراسة والزواج والحصول على الاحترام يتوقف الإنتاج ، والاسوأ من ذلك ، إن الحروب التي دارت على مدار قرون أنزلت الفرد العراقي الى الدرجة الاولى باحثا عن طعام لنفسه ولأهله والحصول على مكان آمن» .

«لذلك لا يتوفر لأحد الوقت لقراءة كتب الفلسفة أو أن يتحدى الرأي العام ولكن العيش هنا في بلد مثل هذا يحفز الانسان للبحث والتساؤل عن مختلف جوانب الحياة» .

«لذلك كان هذا الكتاب يدرس في الجامعات ليحفز الطالب العراقي على استخدام عقله ويباشر بالابتكار» .

- «الان أفهم ، لكن لماذا لا توجد درجة للناحية الدينية؟»

أجابه أديب : «سؤال جيد ، لقد انتقدت هذه النظرية من بعض علماء النفس لأنها تغاضت عن الجانب الروحي أو الديني وخاصة أن الكثير من الناس يهتمون بشكل كبير بالدين أو العقيدة» .

- «شكرا جزيلاً لك ، هل من الممكن أن أحتفظ بهذه الورقة؟»

أحب أن اقرأ المزيد عن هذا الموضوع» .

قال أديب : «بالطبع» وأعطى الورقة ليوسف ثم وقف وقال «سوف ابحت عن بان . البيت بيتك خذ حريتك» .

وضع يوسف الورقة داخل جيب سرواله الخلفي ، وتحرك

ببطء باتجاه التلفاز ، وجلس على إحدى الأرائك ، وسمع صوت خطوات أديب وهو يصعد الدرج ويتجه الى غرفة بان . دقائق على الباب ومحادثات غير مسموعة ثم يُغلق الباب مرة أخرى . لم يهتم يوسف لمرور الوقت فتابع الفيلم على التلفاز حتى سمع صوت أديب يناديه من الطابق الثاني «يا يوسف هل من الممكن أن تفتح الباب؟ هنالك شخص يدق على الباب» .

أجابته يوسف : «بالتأكيد» وتحرك باتجاه الباب الذي كان محاطا بزجاج منقوش ، واستطاع رؤية الزائر من خلال زخارف حمر وخضر فعرفها من سترتها التي ترتديها في كل مكان فقال لنفسه «أنها هديل» .

فتح الباب مبتسما ، ونظرت اليه هديل بسخرية وقالت : «أين كنت كل هذا الوقت؟ لقد طرقت الباب خمس مرات» . دفعت يوسف عن طريقها ودخلت البيت كحصان هائج وقالت : «سوف أموت من الجوع» .

بقي يوسف واقفا بجوار الباب معجبا بالطريقة التي تنطق بها الكلمات فتخرج من فمها كطلقات من بندقية آلية ولم يفهم كيف يجاري لسانها جبروت عقلها .

نظرت هديل اليه ووضعت يديها على رأسها وقالت : «يا إلهي اما زلت واقفا بجوار الباب ، اين بان؟»

- «أظن أنها تصلي وتتجهز» أغلق الباب خلفه ، وتحرك خلف

هديل التي يبدو أنها تعرف كل زاوية في البيت فوضعت حقيبتها على الارض وقالت : «إننا ذاهبون الى مخبز وليس إلى عرس» .
سمعا صوت خطوات تتحرك بسرعة في الطابق الثاني متجهة الى السلم ، فمدَّ أديب رأسه وقال «مرحبا يا هديل أن بان على وشك أن تنتهي من الصلاة» .

اختفى رأسه خلف الجدران مرة أخرى فتحركا معا وجلسا على اريكة مواجهة للتلفاز وطوال عشر دقائق لم ينطق أحدهما بكلمة واحدة .



خرج الثلاثة متجهين الى المخبز في يوم تشع الشمس فيه على أصنام ثلجية في كل مكان ، فارتدى كل منهم ملابس شتائية وقبعات صوفية لتقي رؤوسهم من الريح الشمالية . كان البخار يخرج مع كل نفس من أنفاسهم ويتلاشى قبل أن يخرج زفير آخر .

أحبوا أن يتكلموا لكن غريزتهم منعتهم من الحوار فأصبح النقاش ما بين الارجل والاقدام . خطوات قصيرة سريعة متبعين رائحة المخبز التي غمرت الشارع بطريقة عارمة . كان يوسف الاقرب الى الشارع ماشيا على حافة الرصيف متوازنا من طابوقة الى أخرى . كان يخطو على الطابوقة الصفراء متجاوزا الطابوقة

السوداء بإيقاع مما جعله يمشي وكأنه يفعل ذلك على لحن عسكري . وكان كلما يمر بجانب سيارة واقفة بجانب الرصيف ينظر الى انعكاس صورته على زجاج السيارات منتبها الى شعره وبشرة وجهه مدركا وجود بعض الحبوب على ذقنه .

وصلوا الى المنخبز ، فدخلت هديل أولا ثم تبعتها بان ويوسف ، ودقَّ جرس الباب معلنا قدومهم ، انتبه يوسف الى دفء المكان وجمال طرازه المعماري . انعكست اشعة الشمس على فسيفساء نجمة سداسية مسقطة ألوانا بلورية على الحائط المجاور لماكنة النقود فتتغير الألوان مع تغير شدة الضوء . موسيقى قديمة فلكورية تدور في إحدى زوايا المحل مندمجة مع ديكور المحل فتعطي الانطباع بأنك في القدس القديمة .

الفرن مفتوح وفي داخل فمه المتوهج أرغفة عديدة بمختلف الاحجام من الخبز العربي تتحمص موزعة خلفها حرارة تدفئ المكان ورائحة عطرة يحبها أي انسان يعشق الخبز والاكل الشرقي .

وقفت بان قريبا من ماكنة النقود لكنها لم تستطيع رؤية صاحب المحل فقالت : «أظن انه في الطابق السفلي» .

نظرت هديل الى ساعة يدها وقالت : «انني سوف أفقد الوعي» .

تحرك يوسف لينظر الى مختلف المعجنات ليختار شيئا لوالده

ليفاجئه به مساء اليوم لكن جرس الفرن دق بشراسة ، فألتفت رقاب الثلاثة باحثين عن مصدر الصوت ، وخرج رأس صاحب المحل من الطابق السفلي وانخفضت شفتيه كهلال عندما وقع نظره على بان وأصدقائها .

- «بان حبيبة قلبي البقية في حياتك» قالها إبراهيم بحزن .

- «حياتك الباقية ، شكرا لقد كان جدي يحبك جدا» .

- «جداك من اعزاصدقائي ، كنت أحب الاستماع الى قصصه ومغامراته مع يهوديات العراق ، لقد بقي جداك فتى مراهقا في جسد رجل هرم . أنني ارى صديقا جديدا ، مرحبا أنا إبراهيم» ومد يده ليصافح يوسف .

تحركت بان جانبا وقالت : «عذرا هذا يوسف لقد ابتداء المدرسة معنا الاسبوع الماضي» .

مدّ يوسف يده وقال : «مرحبا لقد سمعت الكثير عن مخبزك ، وأنا معجب بطريقة البناء والرسم على الزجاج» .

- «كل اصدقاء بان وعائلتها هم أصدقائي ، تعالوا ، تفضلوا لننزل الى الطابق السفلي ، فلقد اعددت الخميرة وعلي البدء بالعجن قبل وصول الزبائن» .

نظر الى هديل وأكمل : «هيا يا هديل يمكنك مساعدتي فأنا أعرف كم تحبين خبزي» .

ضحكت هديل وتحركت باتجاه إبراهيم وتبعها يوسف

وخلفهما بان ، نزل الجميع الى الطابق السفلي باستخدام سلم ضيق بشكل حاد مما جعل الجميع يمسك بالسياج الملوث بالعجين الجاف .

عطت رائحة الخميرة والعجين في كل زاوية من غرفة التحضير . كانت مكائن الخلط وتقطيع الخبز تقبع على مائدة خشبية كبيرة محاطة بمقاعد بلاستيكية صغيرة . أفران بمختلف الاحجام تستند على الجدران وفي داخلها أصناف من الخبز ، وحلويات شرقية ، وسقالات ، وقوالب وصواني بجانب الفرن الذي دفاً كل زوايا الغرفة .

سبع شموع مطفأة ذاب شمعها على ذهب الشمعدان جالسة فوق الفرن وبجانبه تناثرت صور كثيرة بالأبيض والاسود لبشر من أجيال مختلفة ، وهنالك مروحة هوائية معلقة بسقف الغرفة تستخدم خلال الاشهر الحارة وذلك لعدم وجود اي نافذة تطل على الخارج .

جلس الاربعة حول الطاولة ، واستخدمت هديل إحدى الماكينات لخلط العجين ، وأخرج إبراهيم صينية من سقالة محملة بالخبز ، ووضعها على الطاولة وقال : «تفضلوا يمكنكم الاكل من هذه الصينية» . أخذ كل منهم قطعة واكلوا بشهية .

قال يوسف : «انه خبز لذيذ بالفعل فهو يذكرني بخبز العراق» .

قال إبراهيم : «ذلك لأنني أستخدم خميرة شرقية ، اختر كما

تريد» .

- «هل من الممكن أن أخذ واحدة لي ولوالدي؟»

- «بالطبع» .

أندمج الاربعة بالحديث والطعام لفترة وجيزة فشبعنا البطون
ودفنت الاجساد ، دق جرس الباب فقام إبراهيم وقال «لقد شرع
الزبائن بالقدوم» وصعد الدرج بسرعة .

راشو مون

امتد الظلام في ليلة السبت ، ولم يبق من ضوء الشمس إلا قرص رفيع يذبل مع كل لحظة ، سربان من الطيور تحلق في السماء مهاجرة باحثة عن مناخ دافئ ، تطير باتجاه الشمس تاركة شامات متحركة على خد القرص الاحمر . اشتعلت اضواء الشارع كشجرة مزينة يوم عيد الميلاد ، اصوات الصراصر تحوم حول الشارع وتتوقف مع وقوف السيارات لفترة وجيزة ثم يعود الصرير مرة أخرى .

سيارات بمختلف الاحجام ترقد على جانبي الرصيف مما أثار فضول الجيران ، فخرج معظمهم ليروا ماذا يحدث حولهم ، لم يروا غير إعلاميين يرتدون مختلف الملابس التي تتبع لشركات التلفاز ويتراخض خلفهم مساعدين فنيين يحملون كاميرات الفيديو . وقف الكل أمام بيت أديب يطرقون الباب منتظرين الجواب ، اشباح تحوم حول البيت يسرقون نظرات الى الداخل مستخدمين شبابيك جانبية ، تضاء أوجه الاشباح مع

شاشات الهواتف الخلوية التي تسابق اليراعات بإضاءة البيت من الخارج .

انخفضت درجات الحرارة ، فامتألاً الشارع بقبعات شتوية بمختلف الالوان والاحجام ، بخار يتصاعد من أفداح القهوة والشاي التي يمسكها الجميع لتدفع أجسادهم . ضجيج يتراكم خلف الباب وكلام خافت ، انفتح الباب جزئياً وتدفع الصحفيون وحاملو الكاميرات صوبه منتظرين ظهور شخص ما . انجذبوا الى الباب مثل انجذاب البعوض للنور . خرج رأس امرأة شابة ترتدي ملابس لقناة تلفزيونية معروفة وقالت لهم «لقد حصلت على مقابلة خاصة مع أديب وعائلته وهو يرجو الجميع بأن يغادروا فوراً» ، وأغلقت الباب خلفها .

انزعج الجميع وتذمروا من هذه الصحفية التي تسبقهم الى معظم المقابلات ، وتوجهوا الى سياراتهم وهواتفهم الخلوية ملتصقة على خدودهم ، تدفقت السيارات في كل اتجاه ولم يبق غير صوت الصراصر يحوم على المنطقة . أغلقت الصحفية الباب خلفها واتجهت الى صالة الضيوف مارة بمحاذاة مرآة ذات إطار ذهبي معلقة على الحائط ، فانعكست صورتها وهي تمشي بإصرار ، لقد حصلت على الحقوق الحصرية للمرة الثالثة لهذا العام ، وسوف ترشح بالتأكيد للفوز بجائزة أحسن صحفية .

عكست المرآة صورة لسيده قصيرة القامة ترتدي نظارات

طبية بيضوية العدسات ولونها بني . أنها صفتها المميزة التي يعرفها الجميع بها ، شعرها يتبدل طولا ولونا لكن النظارات على حالها . شعرها قصير مقصوص على طريقة ولادية تصغر من عمرها وتضع أفرطا مصنوعة من اللؤلؤ . وشاح حريري يغطي رقبتها وسترة جلد بنية فوق قميص أبيض حليبي عليه رمز القناة التلفزيونية .

وجدت حامل الكاميرا يعد نفسه للتصوير ، فنصب الكاميرا أمام الأريكة التي تجلس عليها عائلة أديب وكروسي منخفض تجلس عليه الصحفية المخضرمة ، نظرت اليه بابتسامة وقالت «هل أنت مستعد؟»

أجابها وهو يحك لحيته الطويلة «نعم يا لينا» .

جلست على الأريكة تنظر الى الكاميرا ، فأخرج الفني يده من جيبه ، ونظر الى عدسة ليحسن تركيز الصورة فكان هذا اجراء تقليدي يجريه قبل كل مقابلة .

نظرت الى الكاميرا وقالت له «لا أريد اي مشاكل فنية يا أيثن» .

قال لها «بالطبع فانا اريد الفوز معك وأحصل على زيادة شهرية في مرتبي» . رفع راسه عن الكاميرا وقال «أنا جاهز» .

تحركت لينا باتجاه الدرج ، وتركت أيثن خلفها يحدق ويلعب بمختلف ازرار الكاميرا ، وقفت بجانب أول الدرجات ، ونظرت

الى الأعلى ، فلم تر غير ضوء خافت ونادت «سيد أديب أننا جاهزون» .

لم يرد عليها أحد ، انتظرت خمس ثوانٍ ونادت بصوت أعلى «يا سيد أديب أننا جاهزون للمقابلة» .

رد عليها أديب من الطابق الثاني «أعطني لحظة من فضلك» . حاولت لينا ان ترد عليه لكن غريزتها منعته من التدخل وقررت إعطائهم المزيد من الوقت . رجعت وجلست على كرسيها القصير الذي تأخذه معها في كل موقع ، لقد سافر الكرسي الى سبع قارات وشاهد الكثير من المغامرات والمآسي . انتبهت الى صوت فتح باب وأقدام تتحرك باتجاه الدرج ، خطوات تنزل ببطء مثل أنسان هرم ممسك بسياج السلم بشدة كأنه حزام نجاة ومع كل خطوة يزداد الهرم وتحذب الظهر .

نزل أديب من الدرج ، واتجه الى صالة الضيوف فوجدها ممتلئة بالأجهزة الكهربائية من الكاميرات ، وصحون الأقمار وأسلاك كشبكة العنكبوت في كل زاوية من الغرفة . وقفت لينا لتسلم عليه واستغرب من صغر حجمها ، فكانت قصيرة القامة ولم يكن قصرها يظهر على التلفاز ، تصافحا وجلس أمامها على الاربكة ، وانتبه الى وجود أيشن فرجع يده ليسلم عليه واجابة أيشن برفع حاجبيه الى الاعلى .

انتبهت لينا للدوائر السوداء حول عيني أديب وقالت له : «هل

أنت مستعد يا أستاذ أديب؟»

رد عليها بصوت خافت فلم يخرج صوته فتنحج وقال : «نعم أرجوك بان تكوني متساهلة مع إبنتي» .

اجابته لينا : «طبعاً لكن أين بان؟»

- «انها على وشك الانتهاء من صلاتها وسوف تنزل مع والدتها ، هل تحبون أن تشربوا شيئاً؟»

- «شكراً لك لكننا بحاجة لهذه المقابلة بعجلة» ردت لينا بسرعة .

قبل ان يفتح أديب فمه ، سمع الجميع عدة خطوات قادمة من الطابق الثاني ، فعُدل من جلسته واستقر على طرف الاريكة ، أفردت لينا ظهرها المنحني وأخرجت جهاز التسجيل ووضعتة على الطاولة مقابل الاريكة . اختفى وجه أيشن خلف الكاميرا ، ولعب بمفاتيح داخل جيبه ، وكلما عرقت يده أخرجها ومسحها بسروره .

أخرج أديب مسبحة وجدها في غرفة والده وسبح ، فتتحرك خرزات الفيروز الزرق بين أصابعه ويرن عنقود الفضة المتدلي منها مع كل أسم يردده . نزلت بان اولاً مرتدية حجاباً اسوداً يتناسق مع ثوبها الاسود وتركت قلاحتها المستطيلة الذهبية خارج ثوبها تلمع مع كل خطوة نحو الاريكة . امتد التعب الى جفنيها مثل مد البحر وترك بقعا سود مثل الجزر ، نزلت والدتها

خلفها ووضعت يديها على كتفي بان وهما يتحركان باتجاه لينا .
وقفت لينا وصافحتهما وجلست بان بين والديها ، وشبكت
اصابعها ، ونظر الكل الى لينا فتقوست الصحفية وقالت لهم «ان
الناس ينتظرون سماع قصتك بشغف يا بان» .

انتبهت لينا الى توتر بان وقالت لها : «انها لن تضغط عليها
بالأسئلة» ، نظرت الى ساعتها وقالت «يجب علينا البدء
بالتصوير» .

باشر آيثن بالعد التنازلي وهو يحرك أصابعه للينا ثم اعطاها
الاشارة بأنهم على الهواء فتغير لون ضوء الكاميرا من الاخضر
الى الاحمر ، ابتسمت لينا وحركت الميكروفون قريبا من فمها
وتكلمت بصوت عالي «مساء الخير اعزائي المشاهدين ، أحب
ان اطل عليكم الليلة في بث حي ومباشر من منزل السيد أديب» .
التفت لينا إليهم وقالت لأديب «شكرا لك لاستضافتنا سيد
أديب» .

ابتسم والمسبحة مازالت في يده اليسرى ويده اليمنى على
صدره مرحبا وقال : «اهلا وسهلا نحن نرحب بكل من يرغب
بسماع الحقيقة وانت أنسة لينا مصدر موثوق به على الدوام» .
شكرته لينا وقدمت شذى وبان فحركت راسها باتجاههم
وقالت «وطبعا معنا شذى والدة بان وابنتهما التي كانت في
المخبز صباح اليوم» .

ابتسمت شذى ونظرت الى الكاميرا متجاهلة كل ما كان حولها ، وشعرت بيد بان تجلس في حضنها فالتفتت ووجدت بان تنظر الى الأسفل ، محدبة القامة ، فمسحت على حجابها ، وهمست اليها بأن تفرد صدرها وتنظر الى الاعلى . رفعت بان راسها ، وانتبهت لعيني لينا وهما تبرقان بضوء الفلاش القادم من الانارة الاصطناعية حولهم .

حاولت ان تبسم لكن فمها قاومها بجاذبية قوية منعتها من رفع شفيتها الى الاعلى فظهرت غمازة على خدها الايمن ورثتها من والدها وجدها . انتبهت لينا الى بؤس منظر بان فتكلمت بحنان وقالت «كيف حالك يا بان؟ حمد الله على السلامة» .

اجابتها بان ومازالت يدها في حضن أمها : «الحمد لله» وتلألأت عيناها بالدموع ، فرفعت رأسها لتغض النظر عنها ، فضغطت شذى على يدها لترفع من ارادتها وشجاعتها فمسحت دموعها بإبهامها واستردت السيطرة على مشاعرها ونظرت الى لينا .

- «أخبرينا عن ماذا حدث داخل المخبز» .

- «ذهبنا صباح اليوم الى المخبز لنشتري بعض الخبز والحلويات قبل أن نرجع ونبدأ دراستنا» .

- «ومن كان معك؟»

قالت بان «صديقتي هديل وزميلي يوسف ، احتاجت هديل

لمساعدة في واجبها المدرسي وأحب يوسف زيارة المخبز» .

قالت لينا : «هل تعرفين هديل ويوسف جيدا؟»

- «طبعا فهديل صديقتي منذ الصغر ويوسف طالب جديد

باشر معنا في بداية الاسبوع الماضي» .

- «وماذا حدث؟»

قالت بان «كنا جالسين نساعد إبراهيم صاحب المخبز في

الطابق السفلي وعندها سمعنا صوت جرس الباب يدق فصعد

إبراهيم ليستقبل ما أظنه أحد الزبائن» .

توقفت عن الكلام وأخذت نفسا عميقا ، فنظرت الى والدها

وكان أديب يهز راسه إيجابا مع كل خرزة فيروز تمر على إبهامه

فنظرت بان الى الكاميرا وأكملت «سمعنا صوت مشاجرة بين

إبراهيم وأحد الزبائن ثم صوت اقدم تنزل الدرج بسرعة ولم

نر غير دخان يتطاير في كل مكان واصوات وحشية تتلاطم مع

أصوات الطلقات» .

«نزل إبراهيم بسرعة وطلب منا الاختباء تحت الطاوات

والكراسي» .

تساقطت الدموع مع كل نفس وكل كلمة ، ضغطت أمها على

يدها لتساعدتها لكن بان حركت يدها من حضن أمها لتغطي

على دموعها ، اخرج أديب منديلا وأعطاه لبان لتمسح دموعها

لكن لينا بقت تضغط عليها .

مسحت دموعها واكملت «اختبأنا تحت الطاولة الكبيرة وقال إبراهيم لنا ان هنالك شخصا مسلحا في الطابق العلوي ، اصبحت الرؤيا شبه معدومة بسبب الدخان الذي انتشر في كل انحاء الغرفة . أخرجت هاتفني الخلوي واتصلت بأبي وقلت له أن عليه بالقدوم الى المخبز حالا» .

«سمعنا وقع خطوات ثقيلة تنزل الدرج بحذر فارتج السلم القديم خطوة بعد خطوة ، اختبأ كل منا تحت الطاولة ، ونظر إبراهيم الينا ووضع سبابته على فمه ليحذرنا من الكلام على الاطلاق» .

«نزل الشخص المسلح ووقف في منتصف الغرفة حاملا بندقية بيده اليمنى ، ويرتدي قنابل يدوية حول صدره وتجول في أنحاء الغرفة ، دفع معظم السقالات الى الارض تارك خلفه خبزا في كل مكان وطحين أبيض متناثرا حول الطاولة مبقعا بموطع أقدامه على الارض» .

«وقف المسلح أمام الطاولة ورفعها وقلبها على جانبها فوجدنا جالسين على الارض ندعو ونصلي ، ركلنا بعنف ، فزحفنا نحو هديل واحتضنتها إذ كانت ترتجف من الخوف ويكاد قلبها أن يخرج من صدرها . اتجه المسلح نحو إبراهيم وأمره بالوقوف لكن الصدمة شلته في مكانه ، بدا الشخص المسلح يركله ويضربه ببندقيته ، رفع إبراهيم يديه الى الاعلى ليحمي رأسه من الضربات المتتالية لكن غضب الشخص إزداد بمرور الوقت» .

صرخ وقال : «يا كافر أنا ذاهب الى الجنة وانت سوف تذهب الى النار» .

«أمسك المسلح إبراهيم من ياقة قميصه ورفع الى الاعلى وتحركا باتجاه الشمعدان ، طلب الشخص المسلح من إبراهيم الوقوف بجانب الشمعدان والصور القديمة . انهمرت الدموع على خد إبراهيم وهمس بصوت خافت ثم نظر الى المسلح وقال له أرجوك أن أمي كبيرة السن» .

وتوقفت بان عن الكلام .

قالت لينا «ثم ماذا حدث؟»

أجابتها بان : «قبل ان يكمل إبراهيم كلامه أعدمه بطلقة في الرأس ، أختلط دمه وبقايا مخه مع الشمع وتغير لون الشمعدان الى نحاسي دموي . تناثرت قطرات حمر على الصور القديمة فأصبحت سودا محمرة ثم تساقطت الصور حول جثة إبراهيم» .
توقفت بان عن الكلام وقالت : «على الاقل مات وهو محاط بأهله» .

«أخرج الشخص المسلح هاتفه الخليوي من جيبه وأتصل بشخص آخر وقال له لقد قتلته لكن هنالك معضلة ، يوجد ثلاثة أشخاص في الطابق السفلي معه ولم يبق لدي المزيد من الطلقات . سكت الشخص المسلح مصغيا لتعليمات الشخص على الهاتف وقال نعم نعم لدي قنابل يدوية ومازال لدي الحزام

الناسف ، اغلق الهاتف وأرجعه الى جيب سرواله وتحرك نحو يوسف» .

«في هذه اللحظة سمعنا صفارات الإنذار ، وعلمنا بوصول الشرطة ، فانتبه الشخص المسلح للضجيج في الخارج ، وتحرك نحو الدرج ، وقف امام الدرجات ونظر الينا للحظة ، واستمر في الصعود للطابق العلوي . لم نسمع سوى ضجيج الطلقات والقنابل في كل إتجاه وسمعنا صوت الزجاج يتكسر ويتطاير مع الدخان وعندها اتجه يوسف نحونا وقال علينا الخروج والا سوف نموت اليوم» .

«كانت هديل متسمرة في مكانها ، ووضعت رأسها بين ساقها وهي تهذي وتصلي في نفس الوقت ، حاولنا إخراجها من الهستيريا التي استولت عليها لكن الوقت داهمنا . بحث يوسف عن نافذة أو مخرج لكنه فقد الامل بسرعة فهناك مخرج واحد وهو الدرج الذي يؤدي الى الجحيم» .

توقفت بان عن الكلام وأخذت رشفة من قرح الماء ، أرجعته الى مكانه ، فلاحظت وجود شيء على الارض بجوار الاريكة ، مازالت حقيبتنا يوسف وهديل المدرسية بجوار الاريكة منذ صباح اليوم . انهمرت دموعها ، ووضعت يدها على فمها لتوقف النحيب فانكمشت وأخفت رأسها كالحلزون ودخلت الى قوقعتها ، وضع أديب مسبحته في جيبه وقال «لا أفهم اين كانت الشرطة والجيش؟»

«لقد تأخروا لفترة طويلة . كنت واقفا خارج المخبز لأكثر من أربع ساعات ، وكل ماكنت أستطيع ان اراه دخانا وزجاجا في كل مكان» ، ثم أكمل «كنتُ أطلب من الجندي الواقف في الخارج فعل شيء فيرد علي قائلا أن هنالك شخصا واحدا في الداخل وعلينا بالانتظار» .

«لم يفعل الجيش اي شيء حتى أنهى الشخص المسلح عتاده لكن الوقت قد فات ، لماذا التفريق بين الاقليات؟ هل عدم التدخل كان عرقيا؟»

«أريد أن اسمع من الشرطة ومكافحة الارهاب» قالها وهو يرفع سبابته الى الكاميرا .

قاطعته لينا وقالت : «سوف نعرف من تقرير الشرطة صباح الغد» نظرت الى بان وقالت «هل تحتاجين لفترة راحة؟ ام تحبين ان تكملين لنا الاحداث» .

هزت بان رأسها وهمست : «سوف أكمل حديثي» رفعت رأسها ومسحت دموعها بمنديل ورقي وقالت «بينما كان الشخص المسلح في الطابق العلوي بحثنا عن وسيلة للخروج من المخبز ، اتصلت بوالدي لكن الخدمة كانت غير متوفرة ، استخدمنا أعضاء الهاتف الخليوي للتحرك في الظلام تاركين خلفنا بقع أقدام صامتة على طحين إبراهيم الاحمر» .

«وقف يوسف امام إحدى السقالات المنتصبة وظهرت

ابتسامه على وجهه انعكست بضوء الهاتف الخليوي» .

وقالت لنا بشوق «ماذا وجدتم؟»

اجابتها بان : «وجد يوسف بندقية على أحد السقالات فلقد تركها الشخص المسلح خلفه حين صعد الى الاعلى . أخذ يوسف البندقية ووجد مكانا ليختبئ فيه ليصطاد المسلح عند نزوله . حينها توقفت هديل عن البكاء وطلبت منه ألا يكون أحمقا ويترك هذا العمل للشرطة» .

«اجابها يوسف بأنه يجيد استخدام السلاح منذ الصغر فكان يصطاد الطيور مع ابيه في الموصل وعندها انتبهنا الى توقف تبادل النيران في الطابق العلوي واتجه كل منا الى مكانه ، فاحتضنتُ هديل وجلستُ بجوارها ، وجلس يوسف بجوار جسد إبراهيم وأخفى البندقية خلفه» .

«نزل الشخص المسلح بسرعة والبندقية بيده وكان يعرج بطريقة غريبة إذ يبدو أنه أصيب برجله وكانت الدماء تنز من سرواله الكاكي ، شتمة وحرك سلاحه باتجاهنا» .

قاطعتها لنا وقالت : «اعذريني ولكن ماذا كان يقول لكم؟»
- «لقد نادانا بالعاهرات والكفرة وقال لنا أننا سوف نحترق بنار جهنم» .

نزلت الدموع الحارة على خديها وهي تنحني : «أنا أسمى بالعاهرة والكافرة؟ ارتدي الحجاب منذ صغري ، وأنا أعلم

القريب والغريب عن ديني السماوي» .

- «وماذا حدث بعد ذلك؟» نظرت الى أيشن الذي أشر لها بعشرة أصابع محذرا من ان لديها عشر دقائق فقط على انتهاء المقابلة فضغطت على بان بإجابة الاسئلة .

أجابتها بان «أزداد غضب المسلح ورمى الطلقات بكل اتجاه زارعا الرعب في قلوبنا ، سمعت صراخ هديل وهي تقول : «كفى ، كفى أرجوك» وتهز رأسها يمينا ويسارا .
- «وماذا حدث ليوسف؟» .

- «هدأ الشخص المسلح بعد أن رمى بعض القنابل اليدوية على الدرج ليغلق المنخرج الوحيد واتجه نحونا وكان يوسف مستعدا له» .

قالت لينا مستغربة : «وكيف كان مستعدا؟»

أجابتها بان «وقف يوسف بسرعة والبنندقية بيده وباغت الشخص المسلح لكن المسلح وقف امامه ضاحكا» .

قالت لينا «يضحك؟ لماذا يضحك؟» سألتها باستغراب .

- «وقف المسلح امام يوسف والقهقهة تملأ فمه ورفع يديه معلنا استسلامه وقال ليوسف أرجوك أغفر لي ولا ترميني بالرصاص رجاء . وقف يوسف والبنندقية مصوبة بشراسة منتظرا لحظة مناسبة ليرمي رصاصة تخترق قلب المسلح وينتهي الكابوس» .

قال يوسف : «لماذا تضحك يا أبله؟ قتلت إبراهيم ودمه مازال
يصبغ يديك» .

أجابه المسلح : «أضحك من المشهد الساخر الذي أجد
نفسي فيه . من اين اتيت بهذه البندقية؟»

- «وما شأنك؟ لقد وجدتها على إحدى السقالات . ضغط
يوسف على البندقية بقوة وعرقت يداه ، نظر باتجاهنا لكننا كنا
نحتضن بعضنا البعض» .

- «وهل تعتقد ان الخباز يخبئ بندقية مع الخبز والحلويات
ايها الطفل؟ أنها بندقيتي ولقد وضعتها هنا حين دخلت ابحث
عن خرفان أذبحها قبل عيد الجنة» .

أجابه يوسف : «كفى كذبا! أرفع يدك للأعلى وإلا سوف
تذهب الى نار جهنم يا أحمق» .

ابتلعت بان ريقها ثم أكملت «أنكس المسلح يده وتحرك
بيطاء نحو يوسف ، خطوة بعد خطوة ، ومع كل خطوة ازداد توتر
يوسف وصرخ قف وإلا سوف أرميك ، قف» .

لم ينتبه المسلح ليوسف وأكمل خطواته والضحكة تملأ
وجهه .

صرخ يوسف وقال : «توقف! توقف! سوف أقتلك وضغط على
زناد البندقية» .

قالت لنا : «يا إلهي هل قتله؟»

أجابتها بان : «كلا لم تعمل البندقية فقد كانت مكسورة ،
توقف المسلح امام يوسف وقال له يا أحمق أنها بندقيتي الثانية
ولقد وضعتها على السقالة لأنها لا تعمل» .

«تجمد يوسف في مكانه ورفع المسلح بندقيته ، ورمى ما
تبقى لديه من رصاص باتجاه يوسف ، فنحرت الرصاصات
جسده ، وأصيب في بطنه ، سقط على الارض ملتويا ووضع يده
على بطنه . تدفقت الدماء وكنتم آلامه لكنه فقد السيطرة على
صوته فصرخ وتوسل بالشخص المسلح ليقنتله ، فرد عليه المسلح
وقال له أريدك أن تتعذب في الدنيا قبل نار الآخرة» .

قالت لينا : «هل جاءت الشرطة بعد هذا؟» .

اجابتها بان «كلا ، احتضنت هديل وكنت أسمع صراخ
يوسف الذي بدأ بالخفوت تدريجيا ، وكلما تمر فترة من الهدوء
تليها أصوات الطلقات وصافرات الانذار ثم يعود الهدوء مرة
أخرى . بعد ذلك ترك المسلح بندقيته الفارغة من العتاد ولم
يبق لديه سوى القنابل اليدوية والحزام الناسف ، ثم صعد مرة
أخرى ما تبقى من الدرجات وبدأ يرمي بعض القنابل صوب
الطابق العلوي ويرجع ليختبئ معنا ، فنسمع صوت القنابل تتفجر
يليه غبار ودخان يملأ الغرفة ولم أكن أستطيع الرؤية بوضوح» .

«توقف يوسف عن الصراخ ، ولم يبق سوى صوت بكاء
هديل ، وبعدها بفترة وجيزة حدث انفجار كبير في إحدى زوايا

الغرفة ، ظننت أن الشرطة قد دخلت من أحد الزوايا فتمددت على الارض وسحبت هديل معي بقوة . طنين أغرق أذاني وغبار ملاً عيني ، دخلت الشرطة وأخرجونا ، اصبت بالدوار ولم أعلم ماذا يحدث أمامي فلم أفرق بين الشرطة والارهابيين» .

«وبعد أن خرجنا الى الطابق العلوي لم أصدق ما رأيت ، زجاج متكسر ومتناثر في كل مكان ، طلقات حفرت نفسها في جدران وبلاط المخبز . لقد دمر المكان الذي كانت الاديان تتجمع فيه كل صباح لتأكل ، تشرب وتضحك . سمعت تصفيقا خلفي فأدرت رأسي ورأيت الشرطة والجنود يصفقون ولم أفهم لماذا يصفقون» .

قال أحد المسؤولين أن العملية تمت بنجاح وصفق المارة بحماس ، في الحقيقة لم أفهم إن كانت العملية قد نجحت أم فشلت .

قاطعها أديب وقال بسخرية : «نعم لقد نجحت العملية» .
خفت لينا من الموضوع وقالت : «وماذا عن هديل ويوسف؟»
أجابتها بان : «وجدت هديل بجانبى داخل سيارة الاسعاف وكان الكادر الطبي يعالجون جروحها ، اما عن يوسف فلقد توفي بسبب الجروح التي أصيب بها» .

نظر أيشن إلى لينا وأشار لها لتنتهي المقابلة فشكرت لينا الجالسين امامها وقالت : «شكرا جزيلا للسيد أديب لاستقبالك

لنا ولكرمك مع وقتك» .

نظرت الى بان ووضعت يدها على ركبته وقالت لها «أمل أن تتعافي من هذه النكبة وتصبحي أقوى وأشجع وشكرا لك لوصفك لأحداث اليوم» .

نظرت لينا الى الكاميرا وقالت «سيداتي أنساتي سادتي الاحباء الاعزاء الكرام هذه نهاية المقابلة وشكرا لكم على مشاهدتنا وتصبحون على خير» .

رفع أيثن الكاميرا ووضعها داخل حقيبته ، ثم أزال الاسلاك الكهربائية ووضع كل شيء في مكانه ، واتجه الى أديب وعائلته وصافحهم كلهم وخرج باتجاه سيارته تاركا لينا مع عائلة أديب . وقفت لينا وصافحت أديب وشكرته على ضيافته ، واحتضنت بان وربتت على ظهرها بحنان ، ثم شكرت شذى عند خروجها ، أغلق أديب الباب خلفها وخيم الصمت على البيت .

رتبت شذى الاثاث ، ورفعت اقداح الشاي والقهوة ، اتجهت بان الى غرفتها أولا تاركة أديب خلفها جالسا على الاريقة ، مغمض العينين ، والمسبحة تدور بين أصابعه بطريقة آلية . سمع أديب صوت باب بان يُفتح ويُغلق خلفها فنهض واتجه نحو السلم ، بحث عن كلمات ليعزي أبنته فلقد كانت في موقف لا يحسد عليه . وقف امام بابها ودق عليه بعفوية ولحقها بثلاث كلمات «بان ، أنا والدك» .

صمّت من دون جواب ثم تحرك مقبض الباب ، فتحت الباب
ببطء ودخل الى غرفتها ، جلس على الفراش وطلب منها أن
تجلس بجانبه . جلست بان بجواره منحنية كأنها فشلت في
امتحان مدرسي فحجابها يغطي على وجهها من جانب والدها
فقال أديب «أنظري الي يا عزيزتي» .

التفتت بان ونظرت نحوه وأجابها بابتسامة وقال لها : «لقد
أحسنت صنعا» وأحتضنها ووضعت بان رأسها على صدره وقال
لها : «لو مت اليوم لفقدت هدفي في الحياة ، انت أغلى شيء
في الدنيا» .

هزت رأسها داخل حزن أديب وهي تبكي فقال لها : «كفى
بكاء يا ابنتي ، اقسم بالله ان الحزن غير لون عينيك من عسلي
الى اسود غامق ، لقد عصرت قلبي . إن لم تتوقفي عن البكاء
فسوف أبكي معك» .

هزت بان رأسها وشعرت بدموع والدها الدافئة تنزل على يدها
وحجابها وقال لها بصوت ناحب : «كفى بكاء يا أبنتي» .

رفعت رأسها ورأت والدها يبكي فكتمت دموعها وقالت :
«فهمت لن أبكي بعد اليوم ، توقف عن البكاء يا والدي» .

- «أن دموعك أغلى لدي من ممتلكات الدنيا» .

احتضنا أحدهما الآخر وبكيا سويا .

زقوم

﴿أَذْلَكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ
* إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ
الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْوَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ
لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾
(سورة الصافات) .

استند على الحائط ، فأحسَّ ببرد يمتد الى ظهره ، التفت
لينظر الى حائط حديدي ، فرأى انعكاس صورته المشوهة ،
وكلما اقترب وجهه من الحائط ، ازداد تشوه وجهه المنعكس ،
نظر من حوله ، فوجد نفسه واقفا في مصعد حديدي مغلق
الباب . لم يفهم لماذا كان هنا وماذا يفعل الان ، اتجه نحو الباب
وجرب فتحه بقوة لكن كبر السن وضعف البدن لم يؤازراه في
تحريك الباب ولو لمليمتر واحد ، نظر الى الاعلى فوجد سقفاً
مغلقاً يتوسطه ضوء ساطع في مكانه المعهود .

صرخ مرة ومرتين فلم يجبه غير صدى صوته ، فوضع يده

اليمنى على الحائط المجاور وسعل لينظف رثتيه ، فبصق مادة صفراء لاصقة على يده اليسرى التي غطت على فمه . مسح يده على الحائط البارد تاركاً خلفه خطاً أصفر كأثار حلزون يترنح في ليلة سوداء ، ذابت البقايا الصفراء ببطء باتجاه الارض فنظر الى نفسه مرة أخرى وحقق بتركيز فلم يرَ غير وجهه العجوز الذي أصبح بحجم كف اليد ملأته عينان سوداوان امتلأ بياضهما بشرايين حمر تتدفق افقياً .

وجد مجموعة من الازرار بجانب الباب فتحرك وانحنى ليقراً ماذا كتب بجانب كل زر . كان هنالك سبعة أزرار وكل زر مصنوع من قرص فضة مدور ونحت بجانب كل زر وصف لكل طابق . قرب العجوز رأسه من قائمة الازرار واستطاع أن يقرأ القائمة :

1 . الطابق الاول - جهنم

2 . الطابق الثاني - لظى

3 . الطابق الثالث - الحطمة

4 . الطابق الرابع - سقر

5 . الطابق الخامس - الجحيم

6 . الطابق السادس - السعير

7 . الطابق السابع - الهاوية

تملك الرعب العجوز إذ علم أنه في مصعد يتجه الى الجحيم ، فارتبك وجرب فتح الباب بقوة فلم يفلح ، ركل الباب

وضربه بيده وقدميه لكنه لم يترك أثرا واحداً عليه ، سقط على الأرض ليأخذ نفساً عميقاً ، وارتكز على ذراعيه وفتح ساقيه . قام بعد بضع دقائق واتجه الى الأزارار مرة أخرى وضغط على الزر السابع متجهاً للهاوية .

رمش الضوء للحظة ، وارتعش المصعد وتحرك ببطء ، وفقد العجوز توازنه فاستند على أحد الجدران . انتبه بعد برهة من الزمن ان المصعد لا يصعد عالياً بل ينزل الى الأسفل ، تبخرت برودة الجدران وازدادت حرارتها ضعافاً مضاعفة . انساب العرق من جفنيه ودخل عينيه فحرك يديه ليمسحهما بطريقة تلقائية ، وباشر يدعو ويصلي ليحميه الله في هذه المحنة ، تذكر أطفاله وحفيدته ولكنه نسي أين كان قبل كل هذا . قطع حبل أفكاره صوت أنثوي ينادي بأسماء الطوابق كلما نزل المصعد تدريجياً .

قال الصوت الانثوي بصوت عالٍ : «طابق السقر يحتوي على اللصوص وسارقي أحلام الشعوب ، الطابق الخامس الجحيم يحتوي على القتلة والسفاحين ، الطابق السادس السعير يحتوي على كل السياسيين وكل من أستخدم وساطة لدخول جامعة أو الالتحاق بوظيفة ، الطابق السابع الهاوية ، الرجاء الخروج لكل من تبقى في المصعد» .

انفتح باب المصعد ، وأحس العجوز بتغير درجة حرارة الهواء فأصبح ساخناً لاذعاً ، سمع صرخات وأهات باهتة كأنها تصدر

من مسافة بعيدة ، تملك الخوف جسده ، ولم يستطيع الخروج من المصعد . دفع أحد الازرار ليغادر هذا الطابق لكن المصعد لم يتحرك ، فكر للحظة ثم قرر الخروج .

خرج جواد ببطء مستندا على حائط المصعد ، وحين خرجت قدمه من المصعد ، أُغلق الباب تلقائيا ، وصعد المصعد الى الاعلى ولم يعرف أين يذهب فرفع رأسه ورأى لافتة معلقة في الهواء بأغصان شجرة كبيرة تقع في منتصف بحيرة حمراء . قرأ اللافتة لكنه لم يفقه لغتها فحروفها إنجليزية لكنها مكتوبة باللغة اللاتينية وكتب عليها :

"Lasciate ogne speranza, voi ch'intrate"*

وقف امام البحيرة الساكنة وهدق بالشجرة المنتصبة ، ولم يلمح شيئا في البداية لكنه رأى شيئا يتحرك ، ركز نظره وأمتد الذعر والفرع الى قلبه . تمدُّ الشجرة جذورها في قاع البحيرة لتمتص سوائلها الحمراء اللزجة . كانت ثمارها قبيحة شوكية . وجد جواد نفسه يقترب من حافة البحيرة ليرى بوضوح أكثر ، فلاحظ صف انتظار طويل من أهل النار بجوار الشجرة .

تسلق الناس الشجرة ليأكلوا ثمارها ، وكلما صعد شخص على الشجرة ورمى للبقيّة ثمارها صفق له الناس بحرارة رافعين أيديهم بفرحة انتصار . تنقل جواد حول البحيرة لفترة قصيرة ،

* من الكوميديا الإلهية لدانتي وترجمتها الحرفية : «أنت أيها الداخل هنا تخلى عن الأمل» .

ولم يأبه للناس وللشجرة ، كان خائفا أكثر من كونه جائعا لكنه رأى تمثالا أثار فضوله . تمثال واقف منتصب امام البحيرة ، مصنوع من فولاذ أسود ، فوضع يده عليه منتظرا لسعة حارة لكنه كان باردا ، استغرب جواد من برودته في هذا الجو الحارق فوضع جبينه على التمثال ليبرد نفسه .

وقف التمثال شامخا ناظرا الى الشجرة المنحوسة ، نُحت التمثال على شكل فم إنسان ، شفتان غليظتان وأسنان ذهبية عريضة وامتلات الاخاديد بعفن أخضر ما بين الاسنان . كتبت نفس الكلمات اللاتينية على نصب التمثال ، فوضع جواد أصابعه على الحروف المنقوشة باحثا عن رمز أو لغة تعطيه انطباعا إن كان يعيش في حقيقة أم كابوس .

حاول أن يتذكر أين كان قبل المصعد لمرة ثانية ، لكن ذاكرته خذلته ، انتبه لوجود باب بجانب التمثال ، فاتجه اليه ، ووقف أمام باب أحمر . فتح جواد الباب ، ودخل الى الغرفة التي امتدت على مدى البصر ، بحيرات صغيرة ملأت بالماء المغلي ، وفي داخلها رجال ونساء عراة يتقلبون كالضفادع المقلية . جلادون يضربون أشخاص معلقين من السقف بجلد ظهورهم وهم يصرخون طلبا للنجدة . وقف جواد ولم يعرف ماذا يفعل فهل يعود مرة أخرى للخارج ام يبدأ باستكشاف المكان .

وجد نفس الكلمات اللاتينية في كل مكان ، وبدا له أن

هنالك فئتين من الناس هم المعذِّبين والمعذِّبين ، لبس المعذِّبون ملابساً من الجلد الاسود وحمل كل منهم سوطاً على خصره ، إما المعذِّبون فكانوا عراة نساء ورجالا . وجد أحد الجلادين واقفا مستندا على أحد الجدران التي ملأها رسوم شيطانية ليسترىح ويشرب الخمر من قدح ذهبي ، وقف إمامه وسأله :

- «عذرا لو سمحت هل من الممكن أن تقول لي أين أنا بالضبط؟»

- «في الملهى» وبدا على وجه الجلاد ابتسامة تدل على السخرية .

- «ملهى؟ يبدو لي أننا في الجحيم» .

- «طبعا في النار يا أحمق ، لا تخف سوف يأتي دورك للجلد» .

- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وبحث في جيوبه عن مسبحة التي اعتاد على استخدامها في وقت المحن .

في هذه اللحظة ، توقف شخص وسيم يرتدي روبا أحمر يصل الى ركبتيه ، مغلقا حول خصره ومفتوحا حول صدره ، وخرج شعر صدره الاصفر ، يحمل كأسا من النبيذ بيده اليمنى وسيجارة بيده اليسرى ، ويرتدي نعالا رومانيا وقال «هل ناداني أحد» قالها بضحكة ووضع يده على كتف جواد .

ضحك الجلاد وقال : «لدينا زائر جديد» .

وقف الشخص الوسيم امام جواد وأخرج السيجارة من فمه

وعرّف بنفسه :

«أنا رئيس قسم الهاوية ، ابليس ، اهلا وسهلا» ومد يده ليصافحه .

فتح جواد فمه ، ولم يعرف ماذا يقول فنظر يمينا ويسارا منتظرا أحدا ينادي «أنت على الكاميرا الخفية» .

لم يحب جواد أن يترك يد ابليس معلقة في الهواء خالية فمد يده وصافحه وأنزل رأسه بوقار .

- «لا داعي للشكليات يا جواد تعال ، تعال! هل تحب أن تشرب شيئا؟ يبدو أنك عطشان» .

- «كلا لكنني لم أقل لك أسمى» وتحرك مع ابليس بخطوات بطيئة متخذين نفس الصراط .

قال ابليس والضحكة تمتد على اتساع فمه «أنا أعرف الكل في هذا الطابق ، هل تحب النبيذ الابيض أم الاحمر؟ يبدو لي أنك سكير مخضرم ، أعذرني فلقد كان لدينا حفلة كبيرة مساء البارحة ونفد الجن والويسكي» .

- «لا لا أنني لا أشرب المنكر ، اعذرني» وضع يده اليمنى على صدره بترحيب .

- «لكنك كنت تشرب في صغر سنك» أخرج ابليس جهازا حاسوبيا يشبه الكتاب من جيب الروب الاحمر وضغط على بعض الازرار وتساءل «خمسة وثمانون أم ستة وثمانون؟»

وضع الجهاز أمام جواد فنظر الى الشاشة بدهشة فرأى على الشاشة نفسه شابا في منتصف الثمانينات يقف بجوار سيارة بيضاء وهو محاط بمجموعة من الاصدقاء وكان الكل يتناول الخمر معا .

- «الله يا لها من أيام» ولم يصدق ما يراه .

- «يا بني ادم كلكم من طين وذاكرتكم مشوشة ، وماذا تشربون؟»

قال جواد بصوت خافت «فريدة» .

قال ابليس متسائلا «نعم؟»

اجابه جواد «بيرة فريدة» وحدق بالشاشة ليرى أصدقاءه يتسامرون ، وارتسم المشهد مرة أخرى في خياله ، تذكر شعار بيرة فريدة البرميل الاصفر والقمح المتناثر وكلمة فريدة مكتوبة بالخط الاحمر . تذكر كيف كان أصدقاؤه ينادونه «أنكيدو» لأنه يشرب سبع زجاجات من البيرة في ليلة واحدة .

- «لدي سؤال واحد ماذا تضعون في الزجاج؟»

أجابه جواد «أنها طريقه عراقية قديمة ، كنا نضع الملح في الزجاج» . بقي ابليس حاملا الجهاز بيده ينظر الى الصور المتحركة التي كانت تدور على مدار الساعة .

قال له ابليس : «ولماذا تضيفون الملح للبيرة؟»

- «نضع الملح حتى نقلل من مرارة البيرة فنشربها بسرعة

مثل المشروبات الغازية ، وكنا في بغداد نعرق كثيرا خلال اليوم ، بسبب الشمس الحارقة ، لذلك كانت عضلاتنا تتشنج بسرعة ، وفي يوم من الايام كان معنا طبيب اسمه عصام وقال لنا بأن نضع الملح حتى نعوض فقدان بعض معادن الجسم» .

ضحك ابليس وقال «عبقرية أولاد ابليس المعتادة ، يجب عليّ أن اضيف بعض الملح للبيرة ، الكل يعرق كثيرا هنا بسبب حرارة المكان» .

أكمل ابليس : «أخبرني عن فريدة» .

- «كانت منعشة وطيبة بالفعل لكن بعد الثمانينيات تغيرت الأحوال» .

- «وماذا حدث في التسعينيات؟» أحس جواد أن ابليس يعرف الجواب فلماذا يسأله هذا السؤال .

- «لقد دخل صدام الكويت وتغير كل شيء» . سلم الجهاز الالكتروني الى ابليس وتغيرت نبرة صوته .

فقال ابليس : «لا تحزن يا عزيزي . احزر من هنا؟»

رد جواد : «من؟»

- «صدام وهو يلعب معنا لعبة الورق مساء كل يوم» .

- «لا ، مستحيل» كانت الصدمة قوية بعض الشيء فأخذ

كأس النبيذ من ابليس وشربه كاملا .

ضحك ابليس : «تعال معي سوف ترى بعينيك» .

تنقلا من غرفة لأخرى ، بحيرات ضئيلة امتلأت بنفوس تتعذب ، وفقد جواد نفسه في هذا المكان ، ولم يتذكر كيف دخل اليه بعد الان ، وصلا الى غرفة بابها مفتوح ويخرج منها ضباب من دخان يتصاعد الى الاعلى فتعكس عليه اضواء الغرفة . ثمة طاولة مستديرة خضراء تتوسط الغرفة ، تحيطها دائرة من خشب فاتح اللون توضع عليها كؤوس الخمر والنبيد . يتوسط الدائرة الخضراء تصميم مزخرف من الأشكال الهندسية فنجمة عربية ثمانية تتكرر على مدى العين وتتقاطع اضلاعها مع بعضها مكونة مربعات أندلسية .

وضعت الاوراق المقلوبة على الطاولة ، وجلس خمسة اشخاص امام كل مجموعة من الاوراق ، نظر جواد الى الشخص الاقرب الى الباب وكان حليق الراس مرتديا بدلة سوداء تتوسطها صدرية سوداء تغطي على رباط أسود منقط بنقاط بيضاء كالثعبان . عينان جارحتان وحاجبان مقوسان وشارب كثيف يغطي شفثيه ولحية صغيرة .

جلس بجانبه رجل ضخم ، شعره كثيف دهني مقلوب الى الوراء ، وجلس شاب طويل مفتول العضلات كتم ابتسامة فارغة حين رأى جواد يدخل مع ابليس . انتبه الى زيه العسكري الذي امتلأ بأزرار بنية مكونة صليباً على صدره .

وقف جواد جانبا ، وترك ابليس يملأ اقداحهم بالخمر ، ونظر

اليه شخص ثالث ، كان حليق اللحية والشارب ووجهه ضخم مدور مرتديا قبعة شتائية عليها نسر مجنح ومثلث أسود مكون من أضلاع حمراء يتوسطها نفس النسر . تعجب جواد لارتدائه ملابس شتائية في حر جهنم ، ابتسم الرجل وطلب منه الجلوس ، فنظر الى ابليس وهز الشيطان رأسه موافقا .

جلس امام الشخص الرابع الذي كان شكله مألوفا : عينان صغيرتان وأنف كبير قياسا لفمه الصغير ، ولديه شارب نحيف يتوسط وجهه . امتلأ جبينه بحبيبات العرق التي جعلت شعره الدهني يلمع بإفراط ، وكان شعره مفروقا الى الجانب كطالب مدرسة ابتدائية . بدلته العسكرية تتوسطها ثلاثة أزوار فضية وعلى ذراعه الايسر يجلس صليب معقوف على قطعة حمراء من القماش وكان اكثرهم ابتساما . انتبه ابليس لسكوت جواد وقال له :

«ارفع رأسك يا جواد ، أنك في صحبة ممتازة والليلة نحتفل بوجودك معنا» .

وهن جسده فلم يميز اول ثلاثة اشخاص لكنه عرف الرابع والخامس ، جلس الشخص الخامس صامتا يحدق في وجهه منتظرا منه جوابا قبل أن يسأل السؤال . لم يصدق جواد عينيه إذ كان الجالس أمامه لا أحد سوى بطل النصر والسلام . ملابس عسكرية توجت بالنسور والسيوف على كل كتف ، قميص داخلي

عسكري يغطي رقبته المتهذلة ، وجه ضخم تهدلت وجناته من الارهاق وشارب ثماني يغطي شفته العليا ، شعره أسود مصبوغ وحواجبه سوداء فوق عينين تعبت من التهيؤ والحذر التلقائي .
نظر ابليس باتجاه جواد وصدام وقال «أبو عدي أحب أقدم لك أبو أديب» .

ضحك الجميع ، وازدادت ضجة الجلسة مع مرور الوقت ، فامتلأت الطاولة المستديرة بالأقداح والصحون التي امتلأت ببقايا السجائر وقشور الفستق ، لم يحس جواد بمرور الوقت ، وحاصره الجوع فلقد نسي متى تناول آخر وجبة من الطعام ، وكلما جرب أن يستأذن ليخرج من الغرفة قاطعه أحد الرؤساء ، طالبا قدحا من الخمر أو المزيد من المكسرات والدخان من احدى الجاريات .

بقي جالسا يستمع الى قصص ومغامرات الرؤساء ، ومعدته تأكل نفسها وسمع صدى صوت الجوع يدوي في جدرانها الفارغة ، فوضع يده على بطنه وضغط عليها ليسكتها ، نظر الى ابليس ليقاطع أحاديثه التي بدت لجواد تزداد طولاً مع مرور الوقت .

قاطع الصوت الانثوي الذي سمعه في المصعد حبل جوعه وقال الصوت « الرجاء من ابليس التواجد في الطابق الاول؟ لدينا ضيف جديد» .

رفع ابليس رأسه ونظر الى السماعه المتواجده في إحدى اركان الغرفة ، أعتذر للجميع وقال «أعذروني ، لن أتأخر سوف ارجع بعد فترة وجيزة . يا ترى من زارنا اليوم؟»

خرج ابليس تاركا الرؤساء وجواد معا يتسامرون ويضحكون ، ازداد الجوع مع كل لحظة مرت على جواد لكن الابتسامه المرسومة على وجوه الجالسین منتظرین شيئاً مضحكاً أو رجوع ابليس أخمد شعوره بالجوع .

أصغى الى حديث الرؤساء ، وانتبه الى كيف كلما توقف أحدهم عن الحديث ، وشرب كاساً من النبيذ بأكمله ، مسح بأصابع يده اليمنى شاربه وشفتيه ليزيل بقايا الخمر عن فمه . دخل ابليس مرة أخرى الى الغرفة ، وهلل الجميع لمقدمه ، وضرب لينين الطاولة بقبضة يده وقال : «لقد تأخرت؟ ماذا حدث؟» ثم وضع يده على كتف ستالين الذي كان يمسد شاربه الكثيف .

رد ابليس : «إرهابي آخر! لقد ازداد عددهم هذا العام! ، لقد فجر نفسه ولم يبق منه سوى جذعه وساقيه ، لذلك أمرت بعض الجلادين برميهِ في إحدى نيران الطابق الرابع . عذراً على تأخري» .

نظر ابليس الى صدام وجواد ونظر صدام اليه وابتسم ابتسامه «ذات معنى» .

خيّم الصمت بعد ذلك ، وتسلى الجميع بشرب الخمر ، طفت حبيبات العرق على جباههم لكن الجواري كن يمسحنها بانتظام ويسر ، ولم يلاحظها سوى جواد الذي كان الجوع يعذبه باستمرار ، فانتهز سكوت الجميع ، ونهض بشكل مباغت معتذرا للجميع ، لكن ابليس قاطعه وقال : «هل تحتاج الى شيء يا جواد؟»

- «عذرا لكنني جوعان فلم أكل منذ الصباح» ووضع يده على بطنه ليسكن اصواتها .

- «يجب عليك الذهاب الى شجرة الزقوم في منتصف البحيرة ، فهناك يأكل بقية الافراد» ثم جلس ونظر الى الاوراق التي كانت أمامه .

استغرب جواد من صمت الجميع وتجاهلهم له ، فتحرك متجنباً بقية الكراسي والجواري ، وخرج من أول باب وجده امامه . ممرات ودهاليز طويلة لُونت كل حيطانها بالأحمر ، وكلما وجد بابا يفتحه قاده إلى ممر آخر ، فعاد أدراجه ليسأل ابليس عن المسار الصحيح لكنه ضاع ونسى من أين جاء .

ازدادت وخزات الجوع تناوبا ، فكانت معدته تتقلص كرحم إمرأة حامل ، فوضع يده على أحد الجدران وتوقف عن الحركة ليتغلب على الألم ، وعندما رفع رأسه ، وجد شباكا يطل على البحيرة ، فنظر اليها متأملا ، وضبط بوصلة غريزته واتجه نحوها . باب بعد باب وممر بعد ممر ، ازدادت سرعته ، وكلما اقترب

من نهاية المطاف ، أحسَّ برطوبة الهواء الساخن حوله وفتح آخر باب وخرج الى الفضاء المفتوح .

حرك رأسه يمينا ويسارا فرأى نصب تمثال الفم موجودا في مكانه لكن الفم قد تبخر ، اتجه نحوه ووقف بجواره ناظرا الى الأعلى ، ولم يفقه كيف تحرك الفم عن مكانه . وضع يده على الكلمات اللاتينية المنحوتة على الرخام وأحس ببرودة الصخر فأسند ظهره عليه ناظرا الى الشجرة الخبيثة . قال جواد لنفسه : «كيف لا تحترق هذه الشجرة في وسط الجحيم؟»

انقطع حبل أفكاره وانتبه الى وجود شيء يتحرك فوق البحيرة وقال «يا إلهي ما هذا؟»

حام الفم الفولاذي الاسود فوق البحيرة متحركا ببطء حول الشجرة ، انتبه اليه المارة والناس الذين يدورون حول الشجرة . تحركت شفتا الفم كاشفة عن أسنان ذهبية ولسان أسود ، تكلم الفم وقال : «كل من دخل الى هذا المكان عليه التخلي عن الامل» .

رددها عدة مرات وركع جميع الناس خوفا . تعودت عينا جواد على المنظر ، وداهمه الجوع مرة أخرى ، فاتجه نحو البحيرة وجلس على الرصيف الذي أحاطها ونظر الى الشجرة بخوف ، لكن الجوع كان أشجع منه وجعله يعبر الرصيف متجها الى شاطئ البحيرة .

أحس بوجود الحصى تحت قدميه العاريتين ، شرد ذهنه للحظة باحثا عن نعال أو حذاء لكن وخزات الحصى الحادة أرجعته الى البحيرة الفانية . لم يحزر لم بدت هذه البحيرة لزجة حين وقف خارجها ، وفوجئ ببطء حركته وهو يخوض المياه اللزجة فانزعج من الدبق الذي التصق على ركبتيه وملابسه .

قال لنفسه : «لماذا هي حمراء؟» وانتبه لتواصل الفم بالكلام والدوران حول البحيرة ، تحرك ببطء رافعا ذراعيه الى جانبه ليوازن نفسه كطير يحوم داخل عاصفة ترميه من جانب لآخر ، ازدادت صعوبة التحرك ، وكلما رفع ساقيه الى الاعلى سحبته لزوجة البحيرة . أحس بحكة تأكل جلده حول ركبتيه فحكهما بكل ما تبقى لديه من قوة فخدش الجلد وازداد الاحمرار حول ساقيه .

ظن ان بعوضة أو حشرة قرصته في ساقيه ، فنظر باحثا عن حشرات تتطاير فوق سائل البحيرة الاحمر ليتفادها لكنه لم يجد شيئا حيا فحدق في ركبتيه وهي تخترق السائل ببطء ولاحظ التصاق بعض الخيوط السوداء الرفيعة . وضع يده داخل السائل ليمسك ببعض الخيوط لكنها تزلزلت بين أصابعه تاركة خلفها مادة حمراء لاصقة .

وجد خيطا رفيعا ملتصقا حول ركبتيه المخدوشتين ، فتوقف عن الحركة واستطاع مسكه بعد محاولتين ، وضعه على راحة يده ناظرا اليه باستغراب . امسكه بيده اليسرى ، واستدار الخيط

بين أصابعه كخاتم بيد بنت سلطان ، فتوهجت ذاكرته ، ورأى زوجته امامه تمشط شعرها في بيتهم القديم .

تدفقت رائحة البخور والحرمل الذي كان يشتعل كل ليلة يوم الخميس بعد الانتهاء من وجبة العشاء وتتجمع عائلته امام التلفاز حتى صباح اليوم التالي ، تذكر رائحة العطور التي كانت تضعها له خصيصا بعد الحمام ، إذ كانت تعرف انه يحب أن يغرس رأسه بين ثدييها متنفسا إياها شهيقا وزفيرا .

تزلقت الشعرة من راحة يده ورجعت الى البحيرة ، وقف حائرا للحظة ، لكن كلام الفم المتحرك اوقظه من غيبوبته وهلوساته فسأل نفسه : «لماذا هنالك شعر في البحيرة؟» وحرك أصابعه على سطح البحيرة كعازف يستشعر مفاتيح البيانو قبل بداية الحفلة .

ما اكتشفه بعد ذلك أدخل الرعب الى قلبه ، واقشعر بدنه ، مما جعله يتحرك بسرعة باتجاه الشجرة تاركا خلفه تموجات تتلاعب بالمزيد من الشعر ، والاذافر وبقايا غضاريف وأنسجة حيوانية تفتت عبر عقود وسنين .

كانت أعجوبة أن يصل الى هذه الشجرة من غير أن يسقط لكن ملابسه البيض قد اصطبغت ببقع حمر ، انتبه الى قذارة المكان وتطائر الذباب الذي كان يبحث عن شيء جديد ليلعقه ، ولم ينتبه اليه أحد ، وهو يتجه نحو الشجرة متفاديا القمامة والذباب .

وقف في صف الانتظار منتظرا دوره . لازمه أحساس غريب وهو يحقد من حوله ، إذ كان المنظر مألوفا ؛ منظر القمامة والناس الواقفة في صف الانتظار ، وما يزال هنالك شخص يتسلى ويرمي بثمار الشجرة للناس لكنه انتبه انه لم يعدّ يسمع الفم المتحرك منذ فترة من الزمن .

مسح العرق عن جبينه وحقد صوب موقع النصب ، فوجد الفم جالسا في مكانه ناظرا اليه والى الاخرين بسخرية . وتخيل للحظة ان الفم كان يتسم لكنه لم يستطع ان يتأكد من ذلك . تحرك الصف الى الامام ببطء ، وكان الاحساس بالجوع في الهواء فالجميع جوعى واضعين ايديهم على بطونهم . قرر أن يسأل الرجل الذي وقف امامه في الصف ، كان رجلا مرتديا ملابس بيضاء تشبه ملابسه الملوثة ببقع من الدماء فوضع يده على كتف الرجل وقال «عذرا؟»

نظر الرجل اليه وقال «نعم؟»

شهق جواد وتوقف قلبه للحظة عندما أستدار الشخص امامه فكانت هنالك حفرة رصاصة في جبينه أحاطها دم متخثر ناشف ولم ينتبه الشخص لتعجبه وقال بتعجرف «وماذا تريد؟»

أعتذر جواد وحك راسه قال : «كم مر من الوقت على وقوفك هنا؟»

- «لقد نسيتُ إن كنت واقفا منذ أيام أو أسابيع» .

- «عجيب هل أنت جوعان يا رجل؟»

أجابه الشخص «كل ماكنت أتذكره ان البحيرة كانت أصغر بكثير فكان من السهل الدخول والخروج اليها عدة مرات» .

- «وماذا تغير؟» حرك رأسه ليرى ماذا يفعل بقية الناس ، فانتبه الى شخصين يحملان شخصا مريضا من كتفيه وقدميه ويركضان به الى مسافة بعيدة من جزيرة الشجرة ويرميانه الى قدره . طاف الجسد لفترة قصيرة ثم هبط الى قاع البحيرة تاركا خلفه فقاعات من الهواء .

قال جواد للشخص الواقف : «يا إلهي ماذا حدث؟ هل كان مريضا؟ هل رأيت ما رأته عيناى؟»

اجابه الشخص ببرودة : «يبدو أن اليوم يومك الاول ، أليس هذا صحيحا؟»

حرك جواد راسه بإيجاب ، فأكمل الشخص : «أن ثمار هذه الشجرة قبيحة من الخارج فهي رؤوس الشياطين لكن الجوع لا يفرق بين شيء طيب أو سيء المذاق فكيف تعرف الفرق بينهما إن لم تجرب فتعرف ما كان جيدا لك وما يضرك فهما وجهان لعملة واحدة» .

«يأكل الناس ثمار الشجرة ليسدوا جوعهم لفترة وجيزة لكن الثمار تتحول بعد دخولها الى المعدة لزيت ناري حارق يتموج داخل أجسادهم فيحرق الجسد ويتفسخ من الداخل» .

قال جواد : «يا إلهي ، وماذا سوف نأكل؟»

لم يهتم الشخص لمقاطعته وأكمل : «في البداية كانت الجزيرة عبارة عن أرض تمتد على مدى البصر ويوما بعد يوم مات شخص بعد آخر فكنا نحملهم ونرميهم بعيدا حتى لا نسمع الصراخ ورائحة العفونة ، جثة بعد جثة تتفسخ تاركة خلفها سوائل دموية ، وانسجة ، وشعرا وأظافر ولم نجد أنفسنا إلا ونحن محاطين ببحيرة من دم» .

«لم يجرؤ إي منا على الخروج ، فالجوع يسمّرنا الى هذه الشجرة . في البداية كنا نحذر الزوار الجدد بعدم القدوم والبقاء على الشاطئ لكن الجوع قوة رهيبه وتعبننا ومللنا من التحذير» . صفق الناس لنزول المزيد من الثمار ، واستدار الرجل الى الامام مشجعا ، ادار جواد رأسه يمينا ويسارا فرأى شخصا آخر يقف على شاطئ البحيرة ناظرا إليهم . تردد جواد بتحذيره بعدم القدوم الى الشجرة ، فرفع يده مؤشرا لكن رد الشخص أعجزه ، فنزل يده ووقف منتظرا دوره في الصف .

يا ترى هل صفق وشجع؟

الشريط الأخير

وصل أديب الى مكتب المحاماة مبكرا ، فجلس في سيارته ليستمع الى الراديو ويرتاح قبل بداية يوم شاق آخر . أوصل بان الى المدرسة أولا ثم اتجه الى المكتب ، لم يرد لها أن تستقل الباص صباح اليوم بعد عطلة اسبوعية مريرة كالتي مرت بها ، فقال لها أنه سوف يأخذها الى المدرسة كما كانت صبية ويأخذها الى الروضة يوميا . فرحت بهذا العرض وغيرت ملابسها بسرعة وحملت حقيبتها وجلست مع والدها في السيارة .

تجنب أديب الكلام عن يوسف وهديل ، وطلب من بان اختيار القناة الاذاعية التي تحب الاستماع اليها مع أصدقائها هذه الأيام ، وبعد أغنية أو اثنتين أحست بصمت والدها فلم تعرف إن كان يفكر بشيء ما أو يركز على سياقة السيارة ، قللت من صوت الموسيقى واستدارت لأبيها ، وقالت له : «هل تشتاق الى جدي يا والدي؟» .

اجابها أديب ولم يغير من تركيزه على السيارات المجاورة :

«بالطبع فما يزال اريج صابون «الركي» يعطر البيت» .

ابتسمت بان وقالت «كان يحب رائحة صابون الركى ، أشتاق اليه صباح كل يوم ، وكلما دخلت المطبخ متوقعة صوته الدافئ يناديني من إحدى زوايا الغرفة» .

- «أنا اشتاق اليه في كل لحظة يدخل الوسواس في قلبي لكن تذكري يا أبنتي أننا كلنا سوف نموت» .

لم تجبه بان وكانت تلعب بأزرار الراديو فأكمل : «الحياة غامضة ولكن هنالك شيء واحد مؤكد هو الموت الذي سوف يزور كل منا في يوم من الايام» .

كان الكلام عن الموت عكس ما كان يريده أديب ، إذ أراد قضاء وقت ممتع مع أبنته ولم تفهم بان لماذا كان والدها عاجز عن تجنب هذا الموضوع وقالت لنفسها : «سوف آخذ الباص صباح الغد» . خيم الصمت عليهما ، واستمعا الى الراديو حتى وصولهما الى المدرسة ، ودعت بان والدها وقبلته على خده وخرجت من السيارة .

ازداد الضباب على شبابيك السيارة ، وتساقطت حبات المطر ككلمات على ورقة صفراء تناثرت حروفها عشوائيا ، خرج أديب من السيارة وركض نحو المكتب متجنباً رياحاً عنيفة هزت الأشجار ، ورمت حبات المطر في كل اتجاه .

تدفقت رائحة مواد التنظيف التي التصقت على الممر

المبلل ، فمسح قدميه ودخل الى المكتب فاستقبلته إيزابيل بابتسامة ودية ونظرت اليه بحنان وهي تحك أذنها اليمنى وقالت له «صباح الخير يا أستاذ أديب سوف أجلب لك القهوة في الحال» .

توقف أديب بجانبها وقال لها : «لقد حضرت مبكرا فلا داعي للاستعجال» .

استغربت إيزابيل من وقفته معها إذ اعتادت على ثقل دمه في الصباح ودخوله الى المكتب بسرعة كل يوم . نظر اليها بتمعن ولاحظ أذنيها المعقوفتين وكيف عقصت شعرها خلف أذنها بتلقائية ، وانتبه الى نحافة رقبتها الناعمة وكيف طافت ثلاث شامات كجزر في بحر انوثتها الرقيقة .

قالت إيزابيل لتخرج من هذا الموقف المحرج : «كيف حالك وحال بان؟»

أجابها أديب ملاحظا سلسلتها الذهبية التي تدلت حول رقبتها «الحمد لله ، لقد نجت بأعجوبة وأصرت على الذهاب الى المدرسة صباح اليوم فأوصلتها بنفسى» .

- «لقد أردت الاتصال بك مساء البارحة لكنني قلت لنفسي سوف أراك اليوم فلا داعي لإزعاجك في يوم عطلتك» .

- «كلك ذوق! سوف أذهب الى مكتبي لقراءة بريدي الإلكتروني ولا تنسي القهوة من فضلك!» .

اجابته مبتسمة : «بالطبع» واستدارت حول الاقداح كأنها فتاه مراهقة أنشب الحب مخالبه داخل عظامها . دخل أديب الى المكتب وجلس على كرسيه ناظرا الى الحاسوب ، وباشر يقرأ ويحضر للاجتماع اليومي . دخلت إيزابيل حاملة فنجان القهوة ووضعت به جانبه وخرجت من الغرفة تاركة خلفها عطرا يعد بالحب .

أخذ رشفة من الفنجان ، وبحث في جيوبه ، واخرج هاتفه الخلوي من جيبه الايسر ، ووضعه بجانب الحاسوب ، ثم بحث في جيبه الايمن ، ما بين مفاتيح البيت والسيارة توقفت أصابعه حين لمست مستطيلا صغير الحجم ، فأحس بنتوءات ثقبى الكاسيت فأخرجه بحرص من جيبه ، ونظر اليه بتمعن . مسح عرق يديه على سرواله ، وبحث عن جهاز التسجيل الذي يستخدمه ليسجل رسائل العمل فلم يجده على سطح الطاولة ولا في أدراجها .

قال لنفسه : «اللجنة أين وضعتة؟» نهض واتجه صوب الباب ، والتفت مرة أخرى ليلقي نظرة سريعة قبل خروجه لكن خطواته كانت أسرع من أفكاره ، فتوقف بجانب الباب ونظر الى الغرفة بأكملها . لاحظ جمال الطبيعة الذي يتجاهله يوميا بسبب انشغاله بمراسيم العمل اليومية .

فتح الباب وقال : «عذرا يا إيزابيل لقد فقدت جهاز التسجيل . . .» . وقبل ان ينهي كلامه قاطعته قائلة : «لقد تركته

هنا على مكتبي مساء يوم الجمعة ، لقد انتهيت من طبع الرسائل
يمكنك أن تأخذه» .

أجاب أديب : «لقد بحثت عنه في كل مكان» ومد يده
ليأخذه ، فارتطمت بيد إيزابيل التي أحست بما يشبه صعقة
الكهرباء . لم يبدو على أديب الانتباه ، وأخذ الجهاز ودخل الى
مكتبه من جديد تاركا خلفه إيزابيل خجلى معقودة اللسان ،
جلس على كرسيه وأخرج شريط العمل ووضعه فوق هاتفه
الخلوي ، ووضع الشريط الذي وجدته في مكتبة والده داخل
الجهاز . توقف عن الحركة ونظر الى الكاسيت فكان الشريط
متوقفا في المنتصف فقال لنفسه : «هل اريد ان اسمع اين توقف
والدي او اعيدته من البداية؟»

أقع نفسه بأعاده الشريط من البداية فسوف يستمع للشريط
بالكامل وضغط على زر الارجاع ونظر الى الشريط وهو يتراجع
الى الورا وازدادت سرعة البكرة كلما نقص الشريط . توقف
الكاسيت وتوقف الوقت وذابت الساعة على غصون ذكرياته
كلوحة لسلفادور دالي ، ضغط زر التشغيل وعاد الى عام 1986 .
استدارت البكرات وتحرك الشريط وتدفق صوت جواد وهو
يتكلم الى الميكرفون قائلا : «اليوم الإثنين من شهر آب 1986
وانا جالس في صالة الضيوف لأنها الغرفة الوحيدة المبردة في
بيتي ومعنا اليوم في هذه المقابلة الخاصة ابني البطل أديب» .

أوقف أديب الشريط ولم يصدق ما يسمعه فمن أين أتى والده بهذا الشريط وهل هنالك المزيد منه ، أحس بوجع في صدره فلقد أذاب صوت والده كل حائط ثلجي وكل قلعة بناها ليحمي نفسه من الاحساس بمشاعره الداخلية ، فتساقطت هياكل البناء واحدة بعد الاخرى كقطع الدومينو ، فأصبح عاريا مجرد قلب خام ينبض . حاول إيقاف تدفق الدموع من غير جدوى فمسح عينيه بمفصل يده وضغط على زر التشغيل مرة اخرى .

أكمل جواد : «أديب تعال هنا اجلس بجانبني ، لقد حان وقت المقابلة الصحفية ، واجلب مائدة لتجلس عليها» تشوش الصوت لفترة وجيزة وسمع صوت جلوس شخص بجانب الميكرفون .

قال جواد : «كيف حالك؟»

- «الحمد لله» كان صوت أديب خافتا بعيدا .

- «قرب نفسك من الميكرفون يا ابني» .

- «الحمد لله ، أحسن الان؟» اجابه أديب بسرعة ، صوت

شاب مراهق مرتفع بعض الشيء .

- «وكم عمرك؟»

- «خمسة عشرة» .

- «وكيف حال المدرسة اليوم ، هل ما زلت تشتمون العدو؟»

- «طبعاً يجب علينا الصياح بأعلى اصواتنا حتى يسمعنا

الجميع في المدرسة كلها»

«وماذا تقولون؟» رد جواد وهو يشرب الشاي .

- «عندما يدخل المعلم يطلب منا بالقيام فيقف الصف بأكمله

ويصيح عاش القائد صدام» .

ضحك جواد «وبعدين؟»

قال أديب «فيطلب منا بالجلوس فيجلس الصف بالكامل

ويصيح جلوس يسقط الفرس المجوس» .

ضحك جواد بأكثر وقال «أحسنتم صنعا» .

ابتسم أديب واستند على ذراعه واضعا يده على جبينه وقال

لنفسه «الله يا لها من ايام لقد نسيت كل هذه النوادر ، لقد اشتقت

الى صوتك يا ابي ، رحمك الله» . نظر الى الساعة الرقمية وعرف

ان لديه المزيد من الوقت حتى يستمع لصوت والده المشوش .

- «عظيم وهل انت من الاوائل في الصف؟»

- «طبعاً هنالك واحد او اثنين أحسن مني» .

انتبه أديب لصوته الشاب المراهق المشوش يصبح مقاربا جدا

لصوت ابيه وفرح قليلا مدركا ان هنالك جزءا من أبيه عائش معه

في كل مكان وزمان .

- «ما هو أسهل درس تجده في المدرسة؟» سأل جواد بحرص .

- «درس الوطنية ، فكل ما عليك ان تفعله ان تمجد وتكبر ثورة

تموز والخير الذي جاء منها» قالها بسخرية .

- «كل ما عليك ان تصفق وتطبل كبقية الطلبة ، وماذا بعد؟»
- «وكلما أكتب اسم الرئيس اتبعها بحفظه الله لنا» .
- «طبعاً حفظه الله لنا» قالها جواد وهو يرفع قدح الشاي كالخمر ، ضحكا سويا ثم سأله مرة أخرى .
- «وماذا عن البنات؟»
- «وماذا عن البنات؟» رد أديب خجل .
- «اما زلت تذهب انت ورفاقك بعد المدرسة الى متوسطة البنات؟»
- رد أديب مستغربا «وكيف عرفت بكل هذا؟»
- «إنك ابني يا غبي ولدي عصفور يجلب لي قصصك كل يوم» .
- «من قال لك هذا؟ داوود؟»
- «لا عليك باسم العصفور ، قل لي من منهن التي تعجبك؟»
- «هنالك فتاة اسمها شذى ولديها اخت جميلة أسمها سعاد . أنها فتاة جميلة بالفعل فشعرها طويل يصل الى خصرها ورقبتها طويلة رقيقة» .
- رد جواد ضاحكا : «يمكنني أخذك لحديقة الحيوان وسوف أخطب لك زرافة جميلة ورقبتها أطول وأجمل» .
- زعل أديب ووقف مضطربا وقال جواد : «تعال! تعال! أجلس

أنني أمزح معك أخبرني المزيد عن أختها شذى» واخذ رشفة
اخرى من الشاي .

- «أنها فتاه عادية قصيرة مثل البقية وسمراء كخبز التنور» .

- «وما المشكلة أخبرني عن سعاد» .

أحمرت خدود أديب قائلا : «أنها أكبر مني سنا وتأتي لتأخذ
أختها بعد الجامعة» .

«آه! فهمت!» ثم أكمل بلغة لم يفقهها أبنه .

قال أديب : «ما هذه اللغة يا ابي؟»

رد جواد «أنها الفارسية» .

- «لم أعرف أنك تفقه الفارسية وماذا قلت؟»

- «قلت لك شعر من أشعار مولانا» .

أستغرب أديب «مولانا؟»

«نعم مولانا جلال الدين الرومي وقلت لك من أجمل ما قاله

ثم أكمل : أنا أحب الحب والحب يحبني فتحت ذراعي للحب

والحب احتضنني كالحبيب» .

دام الصمت لفترة وجيزة ثم قال جواد لابنه : «عليك بالدراسة

والاجتهاد ، اريدك أن تصبح عصاميا مثل داوود» وأكمل «اذهب

وساعد أمك بأعداد مائدة الطعام إن أخيك قادم قريبا» .

- «حاضر يا أبي وداعا» .

توقف أديب عن الاستماع ، وانتبه الى وصول الشريط الى منتصف الكاسيت ، وكان هذا نفس المكان الذي توقف عنده والده فأخذ رشفة من القهوة ، وعدّل من جلسته ورجع يستمع الى الشريط من جديد .

قال جواد : «والان سوف ينضم إلينا شخص مهم وهو إبني الاكبر داوود» .

يسمع صوت داوود من بعيد وهو يتكلم مع والده تلاه صوت شيء ثقيل يجلس بجانب الميكرفون فتشوش الصوت لثانية .

- «كيف حالك وكيف يومك؟»

- «الحمد لله الجامعة أفضل بكثير عن المدرسة» .

- «ولماذا تفضل الجامعة؟»

اجابة داوود : «ان المواضيع التي ندرسها مثيرة للاهتمام لكن البنات أحلى وأجمل» ضحك داوود وتنحنح .

رد جواد : «أخبرني عن الدروس ثم غرد لي عن حوريات الجامعة» .

أقترب صوت الميكرفون من داوود وقال : «جزء من دراسة القانون علينا أن ندرس علم نفس الانسان وكيفية السيطرة والتحكم فيه ، وهذا يُمكنك من تقوية الدولة والحفاظ عليها . ثم سوف نتعلم كيف أستخدم الدكاتوريون هذه المعلومات وسيطروا على المجتمعات لعقود طويلة مما أدى الى تدمير شامل للروح

الانسانية في مجتمعات مختلفة» .

- «هذا كلام خطير وماهي الكتب التي تقرأونها؟»

- «هنالك كتابان علينا قراءتهما خارج المنهاج وهما بيان الحزب الشيوعي لكارل ماركس وفردريك أنجلس وكتاب الامير لنيكول ميكا فيلي» .

أجابه جواد : «تعال بعد العشاء الى المكتبة وسوف أعطيك المزيد من الكتب في هذه المواضيع» وأكمل «دعنا من هذا الكلام الخطير وحدثني عن بنات الجامعة» .

- «ليس هنالك الكثير من البنات الجميلات في كلية القانون ولكن لدي محاضرة في كلية الاقتصاد عن فلسفه مظلوم في الشرق الاوسط وهنالك فتاة جميلة» .

- «أخبرني عنها يا ابني» قالها جواد بشوق .

رد داوود : «أنها طويلة رشيقة وحسنة الوجه فشعرها منسدل يصل الى خصرها وعيناها عسليتان ورقبتها طويلة رفيعة» .

- «الله الله وما اسمها؟»

رد داوود بجديّة : «سعاد» .

صمت جواد لفترة وجيزة وقال «أخبرني المزيد عنها» .

رد داوود «لديها أخت صغيرة أسمها شذى وهي في متوسطة البنات وتذهب اليها يوميا بعد المحاضرة لتأخذها الى البيت ،

مسكينة أختها فلقد أخذت سعاد الجمال كله ولم يبق لشذى غير جمالها الداخلي والثقة بالنفس» .

ضحك جواد وداوود معا وقاطعهما أديب قائلاً : «هيا لقد حان وقت الغذاء أُمي تناديكم» . ومع نهاية صوت أديب المراهق انتهى الشريط ، جلس أديب يحدق بجهاز التسجيل ولم يعرف ماذا يقول أو يفعل ، وأحس بإحساس غريب ، فلقد فرح بسماع صوت والده وأخيه لكن الحزن ركبه كفارس يركب حصانه في صحراء الحب متجها الى سراب واحة ليروي عطش حبه لسعاد . «أحساس غريب بالفعل» قال لنفسه بعد أن أخرج الشريط ووضعه في جيبه وأرجع شريط العمل في مكانه . انتبه الى الساعة الرقمية وكان لديه عشر دقائق فقط قبل الاجتماع اليومي فبحث عن ورقة بيضاء ليكتب عليها عماذا سوف يتحدث اليوم . وجد الرسالة التي كتبها قبل أسبوعين وتذكر كيف تغير كل شيء في بضعة أيام فقال لنفسه : «سبحان الله ، يفنى البشر ويستمر الوقت بالدوران» . جرب تذكر شكل داوود لكنه نسي تفاصيل وجهه مثل صورة قديمة غبشت الملامح فيها ، وأراد تذكر وجه أبيه لكن ذاكرته خذلته فأمتلأ ذهنه بالضباب ولم يستطيع استرجاع أصواتهم أو وجوههم .

ازداد هما وقال لنفسه : «لا أريد نسيان وجوههم» وانهمرت قطرات من الدمع على الورقة البيضاء الفارغة ، فتلوثت ببرك

صغيرة دافئة مالحة ، تتم مع نفسه وقال بصوت يشبه عزفا على آلة حزينة : «لا أريد نسيانهم» واحتضنت يده الشريط داخل جيبه واحاطته بعرق عطره الذي يشبه فاكهة الركي .

أرجع ظهره على الكرسي واسترخى ليمالك دموعه لكنه بقي يتمتم وتتحرك شفتاه من غير صوت مسموع ، احتضنت يده جذعه كما كانت أمه تحتضنه حين كان صبيا يرجع الى البيت باكيا فتحضنه أمه لتهدئه فهدأ وتنفس ببطء ، بحث عن مسبحة والده في جيوبه ، ولكنه لم يجدها ، تمالك نفسه وتمتم قائلا «يجب علي وضع صورتيهما في مكتبي والمنزل حتى لا أنساهما أبدا» .

أحس بالقليل من الغيثان فنهض ونظر الى الرسالة وقرأها بصوت عال :

أتذكرك يا وطني
فماضيك يذكرني بشبابي
أتذكر ابتسامتك الحلوة
الممتدة على طول نهريك
وبحيراتك التي تشبه
خالات الحُسن على خديك
أعلق صورك على جدرانني

أفرجها لجيراني
أحكي لهم عن وطني
الذي أوهنه المرض
يا وطني لقد نخر المرض عقلك
حتى أصبح الشهيق عسيرا
والزفير قدرا
تعكر لون دمك
وفقدت أجمل ما فيك
فقدت حكمتك وعقلك
صلى لك الناس من كل الممل
دعوا رب موسى وعيسى ومحمد
كي تقف على قدميك مرة أخرى
حان وقت العزاء يا وطني
فبموتك تحول قلبي لصخر أصم
بكت قارئة الفنجان وحزنت بنت السلطان
وركضت شهرزاد هائمة في شوارع بغداد تبحث عن من يشاركها
العزاء
احتضنها المتنبي وقال لها ضعي رأسك على صدري

يومها بكت السماء وذابت ألوان علم المملكة والجمهورية
أمتزج الأحمر بالخضر والأبيض بالأسود وتدفت الألوان مع
دم ترابك

وأصبحت تتراكم في شرايينك وامتزجت مع دموع حمورابي
ونبوخذ نصر

بعد وفاتك أكل النسر الأسمر ما تبقى من أحشائك
فضحك عباس بن فرناس وقال أخيرا سوف أحلق فوق
عظامك

انتظر الناس شروق الشمس من جديد لكن القرص الأصفر
المغرب

كان بعيدا عنيدا
رحلت القبائل والتمثيل من البرد الشديد فلم يبق في مكانك
الا بحيرة من نار تذوب فيها الأصنام
انتظر الناس نبيا ، ملكا أو فرعوناً ينقذهم من حياة مملوءة
ببؤس شجي

سلامي على بلد كان بوصلة الانسان
لشعب استهواه الدين أو لا
تبقى بغداد منارة الروح في الظلام المطهر
ينتظر العالم أن يرجع الفردوس الى زمانه المزهر

فبكى الجندي المجهول على هذا الزمن القاهر
فأحترق قلبه كالجمر فبرد بعد فترة فأصبح كالبلور
يعكس ألوان الحياة مثل اشور
اتركي الناي الحزين يا بغداد وأرقصي على رموش عيوني
اجهضي يا مريم وادفعي شجرة الزيتون
وأولدي مئة نبي يصلون على بغداد وبابل

تراكمت الكلمات كأمواج في صدر أديب واحدة بعد
الأخرى ، وكلما أخذ شهيقا أحس بالغرق وامتلاً صدره بحزن
دافئ ، فوضع يده على صدره ، واتجه الى الشباك الذي يطل على
طبيعة خلابة من أشجار بمختلف الاحجام تدافعت أغصانها مع
هبوب الريح .

فتح زر قميصه الاعلى ، وأرخى رباطه ليتنفس بسهولة ،
ووضع جبينه على الزجاج ليبرد من نفسه ، وجد ذبابة جالسة
على الزجاج من الخارج ، فنظر اليها بتمعن وأستغرب كيف أن
هذه الذبابة الصغيرة لا تحركها الرياح . رأى انعكاس صورته
بعيون الذبابة وهي تنظر اليه ونقر الزجاج ليطيها عن مكانها
لكنه أحس بالذبابة تريد أن تقول له شيئاً ما .

فتذكر ما قال له والده حين كان شاب يافعا : «يموت الانسان
مرتين الأولى عندما يفقد إيمانه والثانية عندما يموت جسده» .

رنت هذه الكلمات في أذنه وهو ينظر الى الذبابة ، وأصبح
قطعة نقود نحاسية ترمى بيد القدر فانقلب رأسه على عقب .
نظر الى انعكاس صورته ، وأحس بأنه في آخر مراحل الحزن
الخمسة وهي القبول ، فغلق زر قميصه وعدل ربطة عنقه وقال
لنفسه : «كل من دخل الى هذا المكان عليه بالتخلي عن
الامل» واستدار الى الورا وأتجه الى مكتبه فأخذ ملاحظات
الاجتماع اليومي وخرج من المكتب تاركاً خلفه هاتفه الخلوي .
و حين صعد الدرج الى الطابق الثاني سمع صدى رنين
الهاتف فبحث في جيبه وتذكر أين تركه فركض راجعاً ماراً
بإيزابيل ودخل الى مكتبه ورفع الهاتف الى أذنه وقال «الو» .

— تمت —

المحتويات

5	المقدمة
15	رسالة الى وطني
32	الحلزون
50	ثاناتوس
69	الاستشعار عن بعد
89	الغريب
109	جنونستان
128	لاهث
148	راشومون
167	زقوم
187	الشريط الأخير



ينتمي تموز سعدوني الى الجيل الثاني من المهاجرين العرب الذين استوطنوا نيوزلندا «هذه الجزيرة النائية الرطبة التي جلبني أهلي القساة لها» كما كتب في أول رسالة له لصديقه الحميم. اختفى الصديق، واتخذت الجزيرة شكل الوطن. يبني الكاتب كيانا روائيا مبنيًا على تجربته في العيش في الوطن البديل، ناظرا لمخلفاته بمستويين مختلفين من الوعي: الوعي الذي جلبه مع امتعته والذي ما يزال يسكن تلافيف مخه، والوعي الجديد الذي اكتسبه خلال سنوات التأقلم الصعبة. ومثل تلك العبارات المثبتة على علب السجائر، يحذر (تموز) قارئ كتابه بأنه مضر بالصحة ويؤدي الى الإصابة بالاكنتاب.

يؤسس الكاتب عالما تخاله حقيقيا، مُستعملا أدواته بمهارة عالية، فالشخصيات مشكّلة بطريقة احترافية واضحة حتى تكاد أن تلامس قسّمات وجوهها، كما يفوص في دواخلها بحثا عن كواييسها وأحلامها، كاشفا بمرارة أحيانا عن سقطاتها وخيبات الأمل الكبيرة التي تسم الحياة في المهاجر، ثم يبدأ بتهديم هذا العالم حجرا حجرا أمام ناظريك دون أن تكون قادرا على تحريك بنانك لتحتج أو تعترض.



DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037

Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

ISBN
978 1 78481 142 6

